رُؤىٰ سِيَاسِيَّة

عنوان الكتاب: رؤى سياسية
تأليف: د. محمد العبدة
رقم الإيداع: ٢٠١١/١٥٢٥٩
الترقيم الدولي: ١-٠٢-٥٢٠٣-٩٧٧-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الثانية
1435هـ - 2014م

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأية طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدما.

الناشر

مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية

مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية
AL-RESALA CENTER FOR HUMAN STUDIES AND RESEARCHES

مصر - القاهرة - مدينة نصر
مكتب بريد المشروع السويسري
الرمز البريدي : ١١٨٢٦ ـ ص.ب: ٢
تليفاكس: ٢٤٧١١٠٦٤ (٠٠٢٠٢) ـ محمول: ٠١٦٢٦٥٩٥٩١ (٠٠٢)
E-mail: alresalac@gmail.com

د. محمد العبدة

رؤى سياسية

الناشر

مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية

مركز الرسالة
للدراسات والبحوث الإنسانية
AL-RESALA CENTER FOR HUMAN STUDIES AND RESEARCHES

٢٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما يحال بين الفكر والعمل السياسي

يبقى الأول غير مثمر والثاني أعمى

مالك بن نبي

وأفضل أن أكون مفكرا سياسيا

على أن أكون محترفا سياسيا

عبد السلام العجيلي

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

فإن كلمة (سياسة) تحيط بها ظلال قاتمة عند شعوبنا لما عانت وتعاني من ساسة ظلموها وأكلوا أموالها «واستجازوا كيدها وهم أجراؤها» كما يقول المعري، ولكن هذا لا يعني أبدا الابتعاد عن الفعل السياسي، لأن حياتنا اليومية وحاضرنا مرتبط بالغاية التي خلق الإنسان من أجلها، ومما يساعد على تحقيق هذه الغاية على أرض الواقع هو أن يساس العباد والبلاد سياسة قويمة تتاح فيها الفرصة للإنسان لأن يرجع إلى فطرته ويفكر تفكيرا سليما.

هناك ضعف في الوعي السياسي ونعاني من النظرة إلى الأحداث الداخلية والخارجية بنوع من السذاجة، ففي البلاد التي تئن من الحكم الفردي تنتشر أسطورة (الحاكم الذي لا يعلم) حاكم يحب الخير لبلده ولكن المشكلة في الرجال الذين يحيطون به، إنهم مجموعة من الأشرار يخفون على الحاكم كل شيء ويصورون له الأمور بصورة وردية، مع أن هذا الحاكم يسجن الناس بلا حساب، ويقمع كل معارض، ويعتقل بلا دليل.

تضخمت عند بعض الناس في بلادنا نظرية المؤامرة، ومن شدة الهوس بهذه النظرية فإنهم يرونها محيطة بنا من كل جهة فلا مهرب ولا نجاة منها، ويتحدثون عن الحكومة العالمية الخفية التي تدير العالم لمصلحة قوى معينة، إن تفكير هؤلاء سيحول بلادنا إلى صحراء جرداء من الفعل السياسي.

هناك أوهام ذات ضجيج يروج لها بعض الكتاب والسياسيين، مثل الاستسلام لعولمة السوق، أو نعي أي اتحاد عربي والدعوة لكل قطر أن يهتم بنفسه، أو مثل تضخيم ما يسمونه (الفتنة الطائفية) والسياسيون يعلمون ما تحدثه هذه الأوهام في النفوس ويسخرونها لمصلحتهم.

إن مشكلتنا مع الأحداث السياسية هي: إما أن نعتمد منطق السهولة ولا نتعمق في فهم أسباب المشاكل الداخلية والخارجية، وبذلك تغمرنا الأحداث دون أن نجد لها حلا، وإما أن نعتمد منطق الصعوبة ونلجأ إلى تبرير تقاعسنا ونقول إن الأمور صعبة لا نستطيع أن نقدم مجهودا مناسبا، وهذا المنطق هو نتيجة مشكلة فكرية ونفسية لابد من علاجها.

ليست السياسة متابعة الأخبار، فهذا أمر لا يحتاج إلى عناء كبير ولكنها معرفة الحقوق والواجبات، ومعرفة سنن الله في التقدم والتأخر، وأيام الله في أوليائه وأعدائه، ومعرفة مقاصد الشريعة في حفظ الضروريات ومنها: حفظ الدين وحفظ النفس والمال، وهذه حقوق أساسية للإنسان.

السياسة تبدأ عندما تبتعد الأمة عن الغفلة والنسيان، لأن داء الغفلة من أعظم النكبات التي تنزل بالأمم، كيف تنسى الأمة أعداءها الذين نهبوا خيراتها وجرحوا كرامتها وأذلوا رجالها ونساءها، كيف تنسى الشعوب العربية من الذي جر المنطقة إلى هزيمة ١٩٦٧م؟، ومن الذي جر المنطقة إلى حرب الخليج الثانية؟

الفعل السياسي الحقيقي هدفه الإصلاح، ومن يحاول إصلاح الأمة الإسلامية بغير دينها فقد عرضها للتشتت والضعف، والسياسة بمعناها العلمي والشرعي لا تنفصل عن الأخلاق وعن الفكر الذي يؤسس لها ويحميها من الانزلاق نحو الشخصانية والشيئية، والذين يسوسون الأمم وهم لا يفقهون شيئا في علم السياسة فإنهم يعرضون بلادهم لأشد الأخطار «وإذا كان خطأ الجاهل بالطب يودي بشخص واحد فإن خطأ السياسي يودي بأمة» [1].

(١) مجلة المنار م٥ / ٦٢٤ والكلام لـ: أ.غوستاف لوبون عالم الاجتماع الفرنسي

جاءت هذه الرؤى من خلال الواقع ومن خلال التأمل في حياتنا السياسية بعيدا عن السياسة التي تصفق للصوت العالي والخطب الفارغة من كل معنى أو فعل، وبعيدا عن العاطفة التي لا تلقي بالا للبحث والدرس والمنطق.

د . محمد العبدة

لنـدن ٢٥/ ٥/ ٢٠١١

السياسة والفكر

هل تكون سياسة أو فعل سياسي دون فكر أو مبدأ يؤصل لها ويحيطها ويصحح لها؟

الفكر هو الذي يراجع وينقد، والعمل إذا لم يكن وراءه عقيدة واضحة توجهه فسوف يطرأ عليه الانقطاع والانحراف عن الطريق السوي، والسياسة التي تجهل قواعد العمران وأسسه لا تستطيع إلا أن تقوم على العاطفة التي لا تدبر أمرًا ذا بالٍ، المبدأ والفكر هما اللذان يحركان الحضارة، ودور رجال السياسة حمايتها والدفاع عنها.

إن الغرب رغم ما يحمله من فكرٍ ذرائعي يبرر الوسائل في سبيل الغايات، ولكنه لا يتصرف سياسيًّا دون نظريات فكرية توجه العمل، وخزانات التفكير think tank، ومراكز الدراسات هي التي يعتمد عليها في توجيه السياسة.

السياسي في الغرب يدعمه (مكتب دائم) يمده بالمعلومات وكل ما يحتاج إليه، وهو يتمم عملاً مسبوقًا ويمشي في سبيل مطروق.

الناس عندنا يظنون أن السياسة هي الانتهازية والقفز على الحبال، والتحالف مع هذا أو ذاك، ثم يتركون هذا التحالف عندما يجدون من هو أسمن وأغنى.

والنتائج الضعيفة لهذه السياسة التي يسميها مالك بن نبي: (البولتيكا) هي وزارة خدمية، أو عضوية برلمان، أو جاه فارغ، وربما يبرر أحدهم هذه الأفعال بـ (المصلحة)، وهو لا يعني مصلحته الخاصة (وإن كانت داخلة في الهوى الخفي)،

بل المصلحة العامة، ولكن ما المصلحة العامة؟ إنها فتات الموائد (وزارة الصناعة أو وزارة الثروة السمكية)!!

إن المشكلة التي هي أكبر من هذه النفعية المتطرفة هي أن هذه الاسطوانة المشروخة تعود بنغماتها الشاذة، ولا أحد يستفيد من الماضي، أو يراجع نفسه، وهكذا تتوالى الأخطاء والأخطار، يتحالفون مع أمريكا في أفغانستان وتكون النتيجة أن يظهروا في الاحتفالات الرسمية مع الرئيس الذي نصبته أمريكا، ويتحالفون مع أمريكا في مناطق أخرى، ولا يحصدون إلا التلاوم ونقد الآخرين لهم.

لماذا لا نستفيد من تجارب الذين سبقونا من رجالات العلم الذين لهم تجربة وخبرة في العمل السياسي؟!

عندما رأى الشيخ عبد الحميد بن باديس كذب فرنسا، وإخلافها لوعودها كتب معلِّقًا: «إن فرنسا تعد وتخلف والجزائر تُخدع وتَطمع، أما نحن فلا تسلمنا المماطلة إلى الضجر، وإنما يدفعنا اليأس إلى المغامرة والتضحية، وكذب رأي السياسة وساء فألها....»[1].

المبدأ هو الأساس، عندما نحيا مع المبدأ يمكننا الاجتهاد ضمن الظروف المحيطة بنا، عندما نحيا مع المبدأ يمكننا مواجهة آلاف التحديات والمتغيرات، مع المبادئ تكون السياسة، والبحث عن المصلحة الحقيقية، ومعرفة الواقع، والظروف الداخلية والدولية.

وقد مدح الإسلام العلم كي يبتعد الناس عن الأوهام والأساطير ولا

(١) محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص١٨٠.

يتعلقوا بالسراب، كما يتعلق المسلمون اليوم بأسطورة الأمم المتحدة «التي سميت بغير اسمها، وحليت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقوياؤه ضعفاءه، ويسوق أغنياؤه فقراءه.... »[1]، أو بأسطورة النظام العالمي أو الضمير العالمي.

السياسة علم من العلوم وليست (ميكافيلية) التي وُصفت بـ (الحيوانية السياسية) الخالية من الروح والعقل، إن انفصام السياسة عن الفكر نجده عند الذين يذهبون إلى الغرب للحوار أو المعاهدات وليس معهم خطة ولا وثائق.

العلم هو الذي يجب أن يجر السياسة من أنفها؛ حتى يتمكن صاحب الفكر والمبادئ من التغيير المطلوب.

(١) البشير الإبراهيمي: «الآثار الكاملة» ٢/ ٦٤٤.

نظرية المؤامرة

قبل أن نتكلم عن الذين يضخمون ويبالغون في الكلام عن حجم المؤامرة على العالم العربي والإسلامي، أو عمن يقلل من شأنها ولا يعطيها حجمها الحقيقي، قبل ذلك لا بد من التنبيه على قضية أساسية في الموضوع وهي نفسية المسلم العربي الذي يتسم بالحدية والأحادية، فهو إما متشدد أو متساهل، إما أن يضخم المؤامرة أو ينفيها، ويمكن أن نقيس على ذلك كثيرًا من تصرفاته ومواقفه، فهذا يدل على خلل في طرق التفكير أو في التوازن النفسي، فالذي يضخم من حجم المؤامرة ربما يريد أن يستريح من عناء التفكير في البحث عن الأسباب والنتائج، ولا يتعب نفسه في التعامل مع مشكلة ضعفنا، فيرمي بها الغرب أو الصهيونية وينتهي الأمر.. والذي يقلل من شأن المؤامرة ربما يكون تصرفه ردة فعل على الفريق الأول وليس عن بحث وتأمل، أو يريد أن يظهر بمظهر العقلاني البعيد عن التسطيح السياسي.

وكلا الفريقين لم ينصفا ولم يبحثا بإخلاص وتجرد عن الحقائق، وفي البداية نقول: إن مشكلة تخلفنا هي مشكلة داخلية.

﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ولكن هذا لا ينفي العامل الخارجي الذي هو في الحقيقة مكر الليل والنهار الذي يمارسه الغرب.

ماذا يقول نفاة المؤامرة وخاصة العلمانيين الذين يُحمّلون الإسلام ظلمًا وبهتانًا أنه هو المسئول عن التخلف الذي أصابنا، ماذا يقولون عن التخطيط الأوروبي

الذي استمر ستة قرون لتقسيم العالم الإسلامي والدولة العثمانية، والذي جمع هذه المخططات وكتب عنها ليس مسلمًا، وإنما وزير روماني ألف كتابه بالفرنسية (مائة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية) وقد ترجمه الأمير شكيب أرسلان عند الحديث عن التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي. (١)

والأمثلة كثيرة جدًّا، ولا تخفى على أصحاب نفاة المؤامرة، آخرها مخططات (المحافظون الجدد) في أمريكا لتحويل المنطقة العربية الإسلامية إلى (الشرق الأوسط الكبير).

يقول صاحب كتاب (تحطم الأمم): «ولو حدث أن غزت الهند نيبال أو غزت الأرجنتين بارغواي، فمن غير المرجح تشكيل ائتلاف من طراز حرب الخليج»(٢).

ويقول الأمير شكيب أرسلان: «ومن الغريب أن مصر عرضت أثناء الحرب العالمية الأولى أن تقاتل إلى جانب الحلفاء بشرط الجلاء الإنجليزي عن مصر فأبت انجلترا، بل عرضت تركيا أن تكون مع الحلفاء بشرط أن تأمن شرورهم في المستقبل فأبى الحلفاء، لأن الحلفاء كانوا قد قرروا التقسيم فيما بينهم، فلو تحالفوا مع تركيا لما كان ممكنًا أن يقتسموا أقاليمها، ولا يريدون إعطاء مصر أي ثمن مثل الجلاء عن أراضيها، وكل وعودهم للشريف حسين الذي تحالف معهم ذهبت أدراج الرياح».

ويتابع الأمير شكيب ليقول: «إن الحلفاء طلبوا العون من كل دولة في العالم

(١) انظر: تعليقي على الكتاب والمقدمة التي كتبتها عن أوروبا، ط. دار ابن حزم.

(٢) روبرت كوبر: «تحطم الأمم» ص٩٥.

الإسلامي لما ينوونه في المستقبل، وليعلم المسلمون أن الدول المستعمرة لا تقبل من الإسلام حتى ولا الصداقة، وأنها لا ترضى من المسلمين إلا بذل الأرواح والأموال مجانًا»[1].

والصنف الثاني الذين يحملون الاستعمار كل شيء يتجاهلون أن الدول التي لم يطأ الاستعمار أرضها ولم تواجه تحدي المستعمر هي أيضًا متخلفة حضاريًّا ومتخلفة ماديًّا كأخواتها.

(١) «حاضر العالم الإسلامي»: ٢/ ٣٣٠.

العروبة والإسلام

كلما هممت بالكتابة عن هذا الموضوع أحجمت وقلت في نفسي: لقد كتب الكثير حوله، بل قُتِلَ بحثًا ونقاشًا، ولكن ظهور النزعة الإقليمية الحادة، وتلك النزعة العرقية (الشعوبية)، بعد أن ظننا أنها انتهت إلى غير رجعة بانتهاء الاستعمار (القديم) الذي أثارها في أوائل القرن الماضي، حاول ذلك في الجزائر والمغرب، حين أعلنت فرنسا أن (البربر) من جنس أوروبي، وليسوا عربًا ولا مسلمين، وقصة «الظهير البربري» في المغرب مشهورة معروفة.

في ظل الهيمنة الأمريكية (الاستعمار الجديد)، وفي ظل الهزيمة المروعة ثقافيًّا وحضاريًّا، أثيرت القضية مرة ثانية وبشكل أقوى وأسوأ، فعندما أثيرت في القرن الماضي كانت الأمة ما تزال بخير، فيها بقية من حياء، كان فيها علماء، مثل ابن باديس، وهو من أعرق الأسر البربرية، ولكنه أعلنها صريحة واضحة: الجزائر عربية ودينها الإسلام، ماذا يكون البربر والأكراد والجركس و... ماذا يكونون بغير الإسلام، لأي حضارة ينتسبون، وبأي ثقافة يتغذون؟ لماذا يعتبرون أنفسهم أقلية وهم أكثرية بإسلامهم، وما يضرهم أن تكون اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة، وهي لغة ارتضاها الله سبحانه وتعالى ليتنزل الوحي بها، وما الذي يوحدهم حتى بين بعضهم البعض غير الدين، وهل اللغة وحدها عامل توحيد وهي لم توحد الذين ينادون بالقومية العربية العنصرية، إن أيَّ وحدة لا تمدها الوحدة الإيمانية؛ فإنها تتحول إلى وثن يُعبَد من دون الله.

وإن من يستخدم اللغة أو اللهجة المحلية؛ لإقامة الحواجز والفوارق وإثارة

الحمية الجاهلية، فإنه يقوم بدور تخريبي لا يقل عن الدور الذي يقوم به الأعداء في الخارج.

كان النبي ﷺ يدرك بفراسة النبوة مقدار الخطر حين تتفشى في الأمة هذه النعرات العنصرية، أو اللغوية؛ ولذلك شدد على أن هذا نتن، على المسلمين أن يتركوه.

إن ميزات وإبداعات الشعوب يجب أن تصب كلها لصالح الحضارة الإسلامية، ولا بد أن تكون لهذه الحضارة لغة راقية، وهل هناك لغة أرقى من العربية؟

مساوئ الديمقراطية

يذكر الكاتب الصحفي جورج ريمون أن الإيرانيين في أوائل القرن الماضي كانوا يهتفون مطالبين بالدستور، وبعد ذلك يسأل بعضهم بعضًا: ما معنى كلمة الدستور؟!

وأخشى أن المرددين لمصطلح الديمقراطية في هذه الأيام، لا أقول لا يدركون معناها، ولكن هل يرون أن الديمقراطية (اليونانية ـ الأوروبية) وبشتى أشكالها وألوانها يمكن أن تستورد دون نظر في محاسنها ومساوئها، ودون معرفة بأصولها وتطورها؟ هل يمكن أن تُزرع في أرضنا، يؤتى بها وبثقافتها المحيطة بها، مثل فصل الدين عن الدولة، ومثل مذاهب الليبرالية والرأسمالية، أم يجب أن ينظر كل مجتمع وكل أمة فيما يناسبه من طرائق الحكم وطرق تمثيل الأمة؟

إن المعيار الذي تقوم عليه الديمقراطية هو العدد، فهي تقدم الكم على الكيف، وتقدم صندوق الاقتراع على صندوق الرأس، إنه طغيان المساواة الذي يتنافى مع الاختلاف في المواهب والذكاء والعلم، وهذا الطغيان هو الذي يقضي على التجديد، ويسد الطريق أمام كل عبقرية، وكيف تبلغ الأمة أهدافها إذا لم ينتفع بأعظم رجالها؟! ولماذا يمجد صاحب أكثرية الأصوات بدلاً من المتفوق النابغ؟!

ومع أن الأكثرية لها أهميتها، فالكثرة أقل تعرضًا للفساد من القلة، والماء الكثير أقل عرضة للفساد من الماء القليل، ولكن أليست أكثرية من الاختصاصيين والعلماء والخبراء هم الأجدر باتخاذ القرار واتخاذ المواقف؟

أليست هذه أجدى وأقوى من أكثرية الناس بشكل عام؟

ألا يشبه هذا تجمع أطباء عند مريض معين للتشاور في أمره أو مجموعة ضباط كبار للتخطيط لأمر عسكري، وعندما يكون الأمر بيد أهل العلم والخبرة والاختصاص، هنا تنفع الأكثرية، ولا يطلب الإجماع الذي يعرقل العمل أحيانًا، ويعرقل سير المؤسسات.

إن أعرق الديمقراطيات الغربية لجأت إلى وضع مجلس للشيوخ أو مجلس اللوردات، وذلك لكبح طغيان العدد في مجلس النواب، ومع ذلك فإن ديمقراطية الغرب آخذة في الانحسار بسبب التحول نحو ثقافة الإمبراطورية كما في الولايات المتحدة، وبدأت الحكومات الديمقراطية تحذو حذو الحكومات المستبدة كما يلاحظ في الفترة الأخيرة في الحظر على الإعلام والخوف من نشر الحقائق.

ورجال السياسة في أوروبا تركوا «المبادئ» ليتحولوا إلى ممثلين للشركات الكبرى، وقد خضعوا لاقتصاد السوق الذي ليس له حدود، إنما حدوده ومسرح عملياته هي «البورصة»، كما يلاحظ تناقص نسبة المقترعين، وهذا يعني: الابتعاد عن المشاركة السياسية لما يرون من الوعود الكاذبة التي يطلقها النواب.

وإذا كانت الديمقراطية هي «أحسن الأسوأ» كما قال رئيس وزراء بريطانيا السابق «تشرشل»، فإن الغربيين يؤيدون هذه المقولة؛ لأنهم لم يكتشفوا الأفضل والأحسن.

يقول صاحب كتاب «الفرد والدولة»:

«قد تكون الديمقراطية ثقيلة سمجة محفوفة بالعيوب، وقد تنقلب على نفسها باستسلامها لغرائز الجبن، ومع ذلك فإنها هي السبيل الذي تسلكه الطاقات الدافعة».

إن بيان مساوئ الديمقراطية لا يعني أننا نقبل بالطرف الآخر، وهو الاستبداد والديكتاتورية، وإنما نريد البحث عن طريق ثالث.

العلم الذي لا ينفع

من جوامع كلم الرسول ﷺ ومن أنوار نبوته ما جاء في دعائه أنه كان يتعوذ بالله من علم لا ينفع، وهذا من رحمته وشفقته بالناس، حتى لا يتعلم الإنسان ما يضره ولا ينفعه، أو أن يستخدم العلم لتدمير نفسه وتدمير من حوله.

وقد مثل القدماء للعلم الذي لا ينفع بالسحر والكهانة وما هو شبيه بهما، وربما أضافوا الجدل الكلامي الذي ابتلي به المسلمون فأضعفوا قوتهم العلمية، وشغلوا أوقاتهم بما لا يقيم دينًا ولا دنيا.

ولكن مضمون هذا الدعاء يشمل في عصرنا العلوم التي سخرها الساسة لأهوائهم ومطامعهم؛ فعلماء الفيزياء والكيمياء والذرة هم الذين وضعوا السلاح في أيدي مجرمي الحرب المنحرفين من الساسة.

ومن الملاحظ أن بعض علماء الاجتماع وعلماء النفس في الغرب باعوا أنفسهم لدوائر الحكومات الاستعمارية التي سخرت هذه العلوم لاستعباد الشعوب وتشويه الإنسان وإخضاعه لمصالحها؛ فهذه الحكومات تريد جماهير فارغة الرؤوس لا تقدر إلا على استهلاك ما تنتجه مصانع الشركات العملاقة؛ إنها تجارة تستعبد العلماء والعلم لخدمة الجشع المادي.

هذه الحكومات تلقي ملايين بل مئات الملايين من الدولارات في الهواء، إحدى الدول تطلق صاروخًا يكلف نصف مليار دولار، ثم ينفجر هذا الصاروخ، وتأتي دولة أخرى وتطلق صاروخًا أكثر دقة، وهكذا بدأت التكنولوجيا تمتص ثروات الكون.

وقد ذكر علماء الجداول الرياضية أن العالم بدأ يستنزف خيراته ويتحول إلى نفايات، وأصبح العلم يُستخدم في زمن الحرب لتسميمنا، وفي زمن السلم؛ ليجعل حياتنا قلقة مرهقة كما يقول «آينشتاين»، والعالم وضع نفسه في مشاكل لا حلول لها؛ لأنه ترك أخلاقيات العلم.

إن التلوث وصل إلى أصفى الأجواء في قاع الوديان وقمم الجبال، وإلى أزقة القرى البعيدة.. أصبح الهواء النقي بضاعة يبحث عنها، وأصبح الماء النقي العذب شيئًا جديرًا بالتحدث عنه؛ إنها التطورات التي أدخلها العلم في حياة الإنسان.

وقد منعت بعض الدول الغربية ما يقوم به بعضُ العلماء من «الاستنساخ» وهناك احتجاجات على التلاعب بالجينات باسم الهندسة الوراثية.

فهذا «أوبيه هامار» مخترع القنبلة الذرية، حاضر في جامعة جنيف قائلاً: «إنني أكثر إنسان أساء إلى البشرية، بعد إلقاء القنبلة على هيروشيما شعرت بالكارثة».

إن في القرآن إشارات إلى أن المهم هو ما ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم، وأن ليس كل العلم صالحًا للعباد، قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[الزخرف: ٦٣] ، أي: ربما كان من مصلحتكم أن أبين لكم هذا البعض وليس الكل.

وقد جاء في الحديث أنّ ابن عباس رضي الله عنهما كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَجُلاً أَتَى رَسُولَ اللهَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، إِنِّي أَرَى اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ ظُلَّةً تَنْطِفُ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ فَأَرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ مِنْهَا بِأَيْدِيهِمْ فَالْمُسْتَكْثِرُ وَالْمُسْتَقِلُّ وَأَرَى سَبَبًا وَاصِلاً مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ فَأَرَاكَ أَخَذْتَ بِهِ فَعَلَوْتَ ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَعَلاَ ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلاَ ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ بِهِ ثُمَّ وُصِلَ لَهُ فَعَلا.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهَّ بِأَبِي أَنْتَ وَاللهَّ لَتَدَعَنِّى فَلأَعْبُرَنَّهَا. قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «اعْبُرْهَا».

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا الظُّلَّة فَظُلَّةُ الإِسْلاَم، وَأَمَّا الَّذِي تَنْطِف مِنَ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ فَالْقُرْآنُ حَلاَوَتُهُ وَلِينُهُ، وَأَمَّا مَا يَتَكَفَّف النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ فَالْمُسْتَكْثِرُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْمُسْتَقِلُّ، وَأَمَّا السَّبَبُ الْوَاصِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلى الأَرْض فَالحق الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ تَأْخُذُ بِهِ فَيُعْلِيكَ اللهُ بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ بِهِ ثُمَّ يُوصَلُ لَهُ فَيَعْلُو بِهِ.

فَأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللهَّ بِأَبِي أَنْتَ أَصَبْتُ أَمْ أَخْطَأْتُ؟

قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا».

قَالَ: فَوَاللهَّ يَا رَسُولَ اللهَّ لَتُحَدِّثَنِّي مَا الَّذِي أَخْطَأْتُ؟

قَالَ: «لاَ تُقْسِمْ»[1].

ورفض رسول الله ﷺ تأويل باقي الرؤيا لأبي بكر رغم محبته له.

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه برقم: (٧٠٤٦)، والإمام مسلم برقم: (٢٢٦٩)، كلاهما من حديث عبد الله بن عباس مرفوعا والنص هنا لمسلم.

الأخلاق والسياسة

هل تنفصل السياسة عن الأخلاق، أم أن السياسة في الأصل هي رسالة أخلاقية، وهل السياسة وهي مستغرقة في مشاكل الساعة لا تستطيع أن تسمو إلى المبادئ السامية كما يصرح بعض الذين كتبوا حول هذا الموضوع؟

وهل على السياسي أن يخدم شهوات الناس ويسعى للتوفيق بين مصالحهم ولو كان على حساب المبادئ والأخلاق، ولذلك يعمى بصره عن رؤية الحق؟

ربما يُظَنَّ لأول وهلة أن الإجابة عن هذه التساؤلات هي: نعم، لأن السياسة بعيدة عن الالتزام بالمبادئ والقيم الصحيحة.. ومما يساعد على هذا الظن هو الفهم الخاطئ لتعريف السياسة والممارسات التي يراها الناس في عالم الواقع.

ولكن الحقيقة هي أن السياسة في معناها الاشتقاقي هي قيادة الإنسانية إلى الخير والصلاح.

وعندما تنفصل السياسة عن الأخلاق ما الذي يحدث؟!

قد تحرز السياسة السلطة، مهما تكن الوسيلة إلى ذلك، ولكن هل هذا مما يخدم الإنسان؟ ويجلب له السعادة، وهل من الضروري أن تكون الإنجازات السياسية شريرة؟

إن نظرية (مكيافيللي) قصيرة النظر؛ لأن قوة الشر تدمر نفسها، بينما نرى أن النظام العادل يسعى إلى إدراك النجاح ولو في مقبل الأيام، مثلما يتطور النسغ السليم إلى ثمرة تامة، أما الميكافيللية فهي كالسم في النسغ؛ حيث يصب في الشجرة المرض والموت.

يقول الشيخ دراز: «من المشاهد أن حكمًا علمانيًّا يمكن أن يستمر ويزدهر بالاتحاد والعدالة أكثر من حكم أدعياء الإيمان إذا ما ركنوا إلى الأخلاق المنحلة وإلى الفوضى والعصيان»[1].

أما مؤرخو الحضارات الذين يتحدثون عن سقوط الأمم فإنهم يعزون السبب الأكبر لهذا السقوط إلى انحطاط الأخلاق، وأن ما يبثه السياسيون والاقتصاديون في العصر الحديث من الأكاذيب والدعاية المنظمة هو الذي ملأ صدور الناس بالكراهية والغرور.

يقول الفيلسوف البريطاني «ألْدوس هكسلي»:

«إن العقل الناقد قوة محررة إلى حد ما، ولكن فائدته تتوقف على الإرادة، وحين لا تكون الإرادة نزيهة فإن العقل يصبح وسيلة لتحكيم الأهواء وتبرير المصالح الخاصة»[2].

إن الدين هو الذي يمسك بزمام العقل ويربطه بالإرادة الطيبة، والدين هو الذي يحرم السياسة الظالمة، وهو الذي يمنع أسباب الفساد في السياسات التي تعاني منها البشرية اليوم.

عندما يحيا الناس مع المبدأ يمكنهم مواجهة التحديات أو التغيرات غير المتوقعة، ويمكنهم اكتشاف المصلحين من المفسدين، ويمكنهم التعاون، وهو لب الاجتماع الإنساني.

(١) محمد عبد الله دراز: «دستور الأخلاق في القرآن» ص٣٥٢.

(٢) محمد الحمزاوي: «في نطاق التفكير الإسلامي» ص٥٢.

القرآن والسياسة

تحدث القرآن الكريم عن الائتلاف الداخلي للمجتمع القرشي قبل الإسلام، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش: ١-٤]، هذا الائتلاف الاجتماعي الذي قاد إلى الازدهار الاقتصادي وقاد إلى المناخ الآمن مع الدول المجاورة، هذا كله راجع لوجود البيت الحرام الذي أسس على التوحيد، أسسه أبو الأنبياء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، ولكن هذا البيت تحول إلى مباءة للأصنام، فجاء الإسلام ليعيد الأمور إلى أصلها، وهو بناء الائتلاف الاجتماعي والسياسي على أساس التوحيد والقيم المرتبطة بالإيمان بالله واليوم الآخر، وإذا لم يتم ذلك فإن قريشًا ربما تسقط بين مخالب القوى الكبرى المتصارعة يومها (فارس والروم).

مَنَّ اللهُ سبحانهُ وتعالى على قريش بأمنهم الاقتصادي والنفسي، ودعاهم إلى عبادته وحده، فهذا هو الحق، إن الذي له الخلق والأمر هو الذي يجب أن يُعبَد، وعندئذٍ تدور كل الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية حول التوحيد.

تحدثت سورة الإسراء عن صراع القوى الكبرى حول المسجد الأقصى، والصراع هنا أكثر عمقًا وتعقيدًا. تحدثت السورة عن فساد بني إسرائيل، وهو فساد عريض؛ لأنه فساد ما بعد الدولة وما بعد (الكتاب). أما فساد قريش فقد كان بسيطًا؛ لأنه فساد ما قبل الكتاب، وقبل أن تفسد الفطرة تمامًا، وقبل أن يتحول الدين إلى طقوس شكلية، بينما القلب خراب كما هو حال بني إسرائيل.

أُسري برسول اللهَّ ﷺ إلى المسجد الأقصى ليرى المسرح الذي دارت حوله أكبر الأحداث، وليستشرف ﷺ بزكانته مستقبل هذا المكان، وأن المسلمين سيرثونه؛ لأن الأمة التي كانت قبل ذلك أصابها الفساد ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ [الإسراء: ٤] إنه الاستعلاء الإسرائيلي، حيث سلَّط الله عليهم ﴿ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾[الإسراء: ٥] ، وتشتت بنو إسرائيل، ولكن هذا الشتات ما زال يحمل جرثومة الفساد في الأرض، فاليهود الذين عاشوا في الجزيرة العربية قبل الإسلام قالوا لقريش الوثنية: إن دينكم خير من دين محمد، وإذا كانت قريش تستخدم الكعبة لمحاربة القرآن فإن اليهود يستخدمون التوراة لمحاربة القرآن. ولذلك جاء في سورة الإسراء ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. إنها إشارة للمسلمين بأنهم الأحق في حماية المسجد الأقصى وما حول المسجد الأقصى، وهكذا كان توجه رسول الله ﷺ إلى بلاد الشام (مؤتة، تبوك، بعث أسامة).

وفي سورة الروم يفقه المسلمون العلاقات الدولية وانعكاساتها عليهم، فالسورة تذكر مراكز الصراع في العالم الإسلامي (الفرس والروم)، والتي يراد للإسلام أن ينهض ليزيل آثار الشرك والوثنية واستعباد الناس في هاتين الإمبراطوريتين. وقد علل المفسر ابن عطية فرح المسلمين بانتصار الروم على الفرس تعليلاً يستحق التأمل، قال: «إن فرح المؤمنين هو لمحبة أن يغلب العدو الأصغر (الروم) لأنه أيسر مؤنة، ومتى غلب العدو الأكبر (الفرس) كثر الخوف منه». فهذا تفسير لما يسمى اليوم ـ ما رواء التاريخ ـ أي أن الله سبحانه وتعالى وظّف القوة الرومانية لصالح المسلمين، فبعد أن يحطم الروم الفرس، سيخرجون بعد هذا الانتصار منهكي القوى، مما يعبد الطريق لانتصار المسلمين عليهم.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في كل مجالات الحياة، ومنها الجانب السياسي، وعلى المسلمين أن يلتقطوا إشارات القرآن وأن يتدبروه كثيرًا ليستفيدوا منه.

بين الأمس واليوم

في بداية القرن العشرين كانت الدول الأوروبية في حالة هستيرية من التنافس على اقتسام العالم الإسلامي، واحتلال ما يقدرون عليه في قارتي آسيا وإفريقيا، وكانت فرنسا قد احتلت المغرب العربي: الجزائر وتونس والمغرب، وكان من نصيب إسبانيا احتلال منطقة (الريف) وهو الجزء الشمالي من المغرب المطل على البحر المتوسط، بعد أن أذنت لها بريطانيا في ذلك.

لم يهنأ الإسبان باحتلالهم للريف، فقد ثار عليهم الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وتغلب عليهم في عدة معارك، وقامت فرنسا وقعدت لهذه الانتصارات الريفية، وهي لا تطيق استقلالاً إسلاميًّا بجوارها وجوار الجزائر، ولذلك تحالفت مع إسبانيا للقضاء على الخطابي وحركة الجهاد التي قادها.

وبعد سنوات من المقاومة لفرنسا وإسبانيا لم يستطع الريفيون الاستمرار لقلة العدد والعدة، واستسلم بطل الريف حقنًا للدماء، ونفته فرنسا إلى جزيرة من جزر المحيط الهندي.

واللافت للنظر أن العالم الإسلامي بأجمعه تخلَّى عن مساعدة المقاومة الريفية، ولم يتلق الخطابي أي دعم يذكر، ويعلق الأمير شكيب أرسلان موضحًا أسباب هذا الضعف وهذه الانهزامية والسلبية، وترك إخوة يقومون بجهد يكاد يكون من الأساطير، يقول:

«وكان من أسباب ذلك:

١ - فشو الاعتقاد في تركيا ومصر وغيرها من البلاد العربية بأن وسم قضايانا بـ (الإسلامية) يضرُّ بنا ويحفز الأوروبيين على التألب علينا، بينما لو أظهرنا قضايانا على أنها (وطنية) أو (قومية) خالية من صبغة الدين لما وجدت أوروبا بأسًا في إعطائنا الاستقلال، فهذه الدول والأحزاب المؤيدة لها يفرون من (الإسلامية) مراعاة لخواطر إنجلترا وفرنسا، ولكن هذا لم يفدهم شيئًا وخسروا الدين والدنيا.

٢ - كانت طبقة من يسمون أنفسهم بـ (المثقفين) قد انبهرت بأوروبا، واعتبروا أن كل مقاومة لها لا تأتي إلا بالخسران، ويعتبرون موقفهم هذا من التعقل والحكمة»[1].

ليت الذين يخشون من (الإسلامية) ويتسترون بالشعارات الأخرى إرضاء للغرب، ليتهم يدركون أن الغرب يعرف أكثر مما يعرفون، ويعلم أن هوية هذه الأمة هي الإسلام، ولو أن العلماء والمثقفين خاطبوا الغرب صراحة بـ (الإسلامية) لكان ذلك أقرب الطرق لحل كثير من المشاكل.

وأما المثقفون الذين يدَّعون التعقل فهم أقل الناس إيمانًا بالقيم التي يتكلمون عنها، وهم أكثر الناس جشعًا للمال والموائد الفاخرة والثرثرة في المقاهي، ولسان حالهم يقول كما قال الشاعر قديمًا عن تغلغل اليهود في الدولة العبيدية (الفاطمية):

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم ... تهودوا فقد تهوَّد الفلك

(١) انظر: «حاضر العالم الإسلامي»، وتعليقات الأمير شكيب أرسلان حول ثورة الريف والأمير محمد عبد الكريم الخطابي.

الحديث عن الأقليات والإقليميات
لماذا ظهر الآن؟

لا أدري ما الذي دهى هذه الأمة فجعلها تستجيب لوساوس الشيطان، وتُغرِق في التفتت والتجزُّؤ، ويظهر فيها مفهوم الإقليمية الضيقة باسم الخصوصية الوطنية كما تظهر على السطح قضية (الأقليات) التي لم تظهر سابقًا، وقد وقع في براثن هذا التشرذم الإنسان العادي، بل وصل هذا المرض إلى بعض حاملي الدعوة الإسلامية!

والغريب أن الدولة الإقليمية التي تشع بالخصوصية الوطنية وتعلن في الوقت نفسه انتسابها إلى الأمة العربية والإسلامية، هذه الدولة قد أصابها الداء الذي كانت سببًا في إبرازه ونشره، فهي تخاف أيضًا من الأقليات في داخلها.

بالأمس القريب كان الجزائري يهاجر إلى دمشق فلا يجد نفسه غريبًا، ولا يشعر أنه بين أناس لا يعرفهم، ويستقر هو وأسرته، ويكون من أولاده وذريته الوزراء والعلماء، ولا أحد من أهل دمشق يسأل: كيف يصل إلى هذا المنصب وهو ليس منا؟.. جاءت أسرة (الكتاني) من المغرب واستقرت في دمشق، وهي أسرة علمية معروفة، وفي الخمسينيات من القرن الماضي كان رئيس جمعية العلماء في سورية الشيخ مكي الكتاني.

وقد هاجر الشيخ محمد الخضر حسين من تونس واستقر في دمشق، وبعد احتلال فرنسا لسورية هاجر الشيخ إلى مصر، وعمل هناك رئيسًا لتحرير مجلة

(لواء الإسلام)، ثم أصبح شيخًا للأزهر، ولم يخطر ببال أحد من أهل مصر أن يسأل كيف يصبح تونسيًّا شيخًا للأزهر.

والشيخ رشيد رضا هاجر من طرابلس الشام إلى مصر، وأنشأ مجلة (المنار)، وربما يظن بعض الناس أنه مصري لتوطنه في مصر المدة الطويلة.

كان الشيخ ابن باديس من أسرة بربرية عريقة، والْتَفَّت الجزائر كلها حول الشيخ ومشروعه (جمعية العلماء) وكان من أشد المنادين لإحياء العربية.

إن القراءة التاريخية لمجتمع المغرب العربي تكشف عن الغياب شبه الكامل لأي تناقضات عرقية أو لغوية (عربية ـ أمازيغية) كانت العلاقات مبنية على الاتصال وليس على الانفصال، ولم يشعر المجتمع المغربي أن هناك شيئًا اسمه أقلية أو أكثرية.

في العراق وسورية أكراد مسلمون ولم يشعر العربي المسلم حيالهم بأي شعور عنصري في وقت من الأوقات، بل لم يخطر بباله هذا الشعور؛ لأن الإسلام والتجانس الحضاري ظلَّل الجميع، وكثير من رؤساء الوزارات وكبار الضباط في الجيش كانوا أكرادًا، ولم يقل أحد كيف وقع هذا؟ فلماذا تظهر هذه النزعات الآن، هذه النزعات المدمرة للأمة والمدمرة لأصحابها أيضًا، إذا كان هؤلاء مسلمون فالإسلام هو الجامعة الكبرى بيننا، واللغة العربية هي لغة العلم والدين.

منذ نشأة الإنسان وهو يحب أهل بيته وهذا هو وطنه الصغير، فإذا تقدم في السن اتسع أفقه واتسعت بعد ذلك دائرة وطنه، وعرف الذين يماثلونه في ماضيه وحاضره، ووجد فيهم صورة ماضيه وحاضره، ووجد فيهم صورة أخلاقه ومنازعه، وهذا هو وطنه الثاني، ولكنه سيجد أيضًا سعادته في أمته ووطنه الكبير (الوطن الإسلامي)، ولا تعارض بين هذه الأوطان إذا كانت كلها ذات وجهة

واحدة نحو الجامعة الكبرى: الإسلام، وكما قال الشيخ البشير الإبراهيمي: «إن الغرب هو الذي خدّرنا بالوطنيات الضيقة، فأصبح كل فريق قانعًا بجحر الضب، ويناضل عنه بمثل سلاح الضب، وهيهات إذا مزقت الأطراف أن يُحفظ القلب».

الزعماء الذين ارتبطت مصالحهم بالغرب هم الذين يؤججون نار العنصرية، ويخوفون الأقليات ويكذبون عليهم ويدّعون أن الالتفاف حول زعامتهم هو الذي يحميهم من الأكثرية، بينما الحقيقة أن ليس هناك أقلية وأكثرية إذا كان الإسلام هو الجامع بيننا، وعلى الشعوب الإسلامية ألا تستجيب لهذه النزغات، وأن تعلم أن مصلحتها في الدنيا والآخرة هي في الوحدة والتآلف، والغرب الذي يساعد على هذه النزغات هو الذي يتوحد بطوائفه الدينية المختلفة وبأعراقه المختلفة.

إن القضايا الكبرى التي تهم الأمة لا يصلح لها إلا المصارحة وقول الحق ولو كان مرًّا، ولا يصلح لها التدسس للعواطف على حساب الدين والمصلحة، والإسلام لا يحارب الأشياء الطبيعية مثل الانتساب إلى قبيلة أو شعب، ولكنه يحارب العصبية الجاهلية والتكتل حولها، والحل لا يأتي من ردود الأفعال المتشنجة، ولكن بما أدبنا به هذا الدين وما شرع من شرائع هي لمصلحة المسلم في دنياه وآخرته، وإذا كان هناك أقليات غير عرقية فيجب أن تندمج مع الأكثرية حيث تتوحد المقاصد، والأمة لا تحكم إلا برأي السواد الأعظم من أبنائها.

الإسلام السياسي

في إشارة إلى أساليب اليهود الملتوية، ونفوسهم التي أكلها الحسد، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٣-٥٤]، والملك العظيم إشارة إلى ملك داود وسليمان عليهما السلام.

طعن اليهود في نبوة النبي محمد ﷺ وقالوا: لو كان نبيًّا ما اشتغل بالسياسة والحكم، ولا أدخل اليهود (في المدينة) تحت طاعته، أي: تحت طاعة الدولة الإسلامية في الأحكام العامة، ولا عقد معهم المعاهدات. أليس منطق العلمانيين اليوم (وأمثالهم) هو منطق أهل الكتاب؟! هؤلاء الذين كرهوا ما أنزل الله، وزُيِّن لهم باطلهم، هؤلاء يشنعون على المسلمين أنهم يشتغلون بالسياسة، ويدخلون الدين في السياسة، والدين ـ في نظرهم ـ أسمى وأقدس من أن ينزل إلى دهاليز السياسة، ووحلها ومناوراتها، وكأنهم في الظاهر يحترمون الإسلام ويعظمونه؛ ولكنه في الحقيقة المكر الذي تعلموه من أسلافهم؛ ولذلك اخترعوا مصطلح «الإسلام السياسي»، وكأن هناك إسلامًا اجتماعيًّا وإسلامًا اقتصاديًّا، وإسلامًا فقهيًّا... وهذه تجزئة غير بريئة، وهم ممن يجعل القرآن عضين، الإسلام كل هذا، وهو لا يدخل في السياسة إذا كانت تعني: الدجل والكذب والخداع.

ولكن الإسلام من يوم أن بُعِث محمد ﷺ قُدر له أن يكون نظامًا ينشر رحمة وعدلاً، ويقيم أمة وحكمًا، ولا تعريف له إلا «الإسلام» الذي هو هداية للبشرية

في كل عصر، وكل مكان، وهو هوية الأمة، ولا هوية لها غيره، وهو حضارتها وثقافتها، وهو عقيدتها وشريعتها. وكل محاولة لتجزئة الإسلام داخل إطار معين هي محاولة فاشلة، وإن كانت ماكرة.

لماذا لا يبيح العلمانيون بمكنون صدورهم، وتكون عندهم الشجاعة لأَنْ يصرِّحوا بما في نفوسهم، ولْنَقُلْ لهم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤].

نحن والغرب وطبيعة الخطاب

ليس جديدًا الحديث عن الغرب، فهو حاضر منذ ثلاثة قرون وفي العالم كله، ولكن بعد أن ظنت أمريكا أنها استفردت بالعالم، وبعد العولمة ومآلاتها وبعد ٩/١١ واحتلال العراق، كثر الحديث عن طبيعة الخطاب مع الغرب، وبعض الناس «هرول»؛ حتى يحسِّن صورته مع هذا الغرب، وبعضهم أراد أن يحسن صورة الإسلام، وكأن الإسلام بحاجة إلى تحسين صورته.

وقبل الحديث عن الخطاب، وما يدور حول الخطاب، أَلَا يجب علينا أن نتعرف على المكونات الثقافية للغرب؟

هناك حقائق لا بد أن تُذكر، ولا بد أن تعرفها الأجيال؛ لتتعرف على المأساة دون زيادة أو نقصان، وهذا التعرف لا يعني بحال من الأحوال القطيعة مع حضارة قوية عاتية قدَّمت للعلم الشيء الكثير، ولكنها في الوقت نفسه هي حضارة متكبرة نفعية يغلب عليها الطابع المادي الذي يريد زعزعة اليقينيات الدينية.

وهذا التعرف لا يعني أيضًا: الجمود على مقولات معينة، بل يجب أن نتابع ونلاحظ التطورات الحاصلة على الساحة الغربية، مثل: المظاهرات المليونية التي خرجت في عواصم أوروبا معارضة للحرب، ومعارضة لغرور أمريكا.

يقول مالك بن نبي الذي عاش مدة طويلة في الغرب وتعمق في الاطلاع على ثقافة الغرب، يقول: «الفرد الأوروبي يحمل جراثيم الكبرياء؛ لأنه يتلقاها منذ الطفولة، ويتكون فيه تصوره للعالم، فهو يعتقد أن التاريخ والحضارة يبتدئان في

أثينا ويمران على روما ثم يختفيان فجأة ألف سنة، ثم يظهران من جديد في باريس»[1].

فهذا الغرب لا يتصور تجربة في الحياة خارج إطار حضارته وغيرهم «متخلف» فهو يكفرنا حضاريًّا.[2]

وفي عام ١٩٦٢م قال رئيس وزراء الصين «شؤان لاي»:

«رغم كل عصور الحضارة التي يحملها تاريخنا، ورغم كل ما أسديناه للجنس البشري، لم ينلنا من الغرب سوى الإذلال».

ويقول المسلم النمساوي محمد أسد:

«عندما يبحث أحد الغربيين في الهندوسية مثلاً أو في البوذية فإنه يعي دائمًا الفروق الأساسية بين هذين المعتقدين وبين معتقده، إنه يتبصر في مثل هذه الثقافات برصانة واتزان، وأحيانًا بتقدير وإكبار، بيد أنه عندما يصل الأمر إلى الإسلام ـ وهو دين سماوي ـ ليس غريبًا عنه، فإن المحاباة العاطفية تضطرب وتختل، فهل السبب في ذلك يعود إلى أن قيم الإسلام تشكل خطرًا ممكنًا على المفاهيم الغربية؟ ولكن يجب أن نعود إلى التاريخ لنفهم الأساس النفسي.

إن ما يشعر به الغربيون نحو الإسلام متأصل من انفعالات ولدت في إبان الحروب الصليبية»[3].

إذا أردنا أن نفهم الغرب يجب علينا ألاَّ نفسره أجزاء، بل ننفذ إلى أعماق الضمير الغربي وما يحمل من فلسفة ذرائعية تقوم على أن الحق هو ما يحقق النفع للرجل الأبيض.

---

(١) في مهب الريح، ص١٦١.

(٢) كما يعبر طارق البشري.

(٣) الطريق إلى مكة، ص١٦، ١٧.

هذه الذرائعية هي التي تجعله يستخدم الدين «كرافعة» لمصالحه الخاصة، فيدعم التبشير خارج مجتمعاته، بينما يعلن في داخله أنه علماني لا يتدخل في الأديان.

فهل ينفع مع هذا الغرب الحكومي أو الرسمي إظهار المسكنة والضعف؟ وأننا أناس لا نخيف أحدًا، إن هذا سيجعله أكثر شراسة، وأكثر تكالبًا وطمعًا، والغربي بطبعه يعتبر نفسه في صراع مع الآخر، وفي صراع مع الطبيعة كما يعبر دائمًا، فعندما يرى في إنسان أو في أمة الضعف والهوان فهو يحتقر هذا الإنسان.

وهذا لا يعني أن الحالة يجب أن تكون حالة عداء، ولكنها الحقيقة: إما أن نخضع له كما يريد بعض الناس ـ وهم قلة والحمد للَّـه ـ أو نتعلم كيف نخاطبه خطابًا قويًّا نشعره بذاتيتنا وكرامتنا.

والمسلمون يملكون وسائل كثيرة للضغط على الغرب وتوسيع دائرة الصراع، وإن كان صراعًا سلميًّا وليس عسكريًّا، وذلك لتغيير ميزان القوى.

وأما الحوار معه فإن «مراد هوفمان» وهو أحد مثقفي الغرب الذين أسلموا ينصحنا ويقول:

«إن الحوار بين الإسلام والغرب هو حوار مستحيل، وإنما الحوار الأكثر فائدة وفاعلية هو الحوار بين الإسلام والنصارى في الغرب»[1]، أي حوار مع العقلاء منهم والأحرار[2].

(١) مقابلة مع مجلة العالم، ١٧/ ٥/ ٩٧.

(٢) انظر المقال الذي كتبه الشيخ سفر الحوالي عن الموحدين في النصرانية: مجلة البيان عدد شعبان ١٤٢٥هـ.

دروس فيتنام

إن أحرى الناس وأقربهم لأن يستفيد من التاريخ هم الساسة الذين يجابهون أحداثًا كبيرة، وقرارات صعبة، وعلاقات دولية متشابكة، فعلم التاريخ من العلوم القريبة من صنع القرار السياسي، والذي يقرأ عن تحالفات الدول وأسباب نجاحها أو فشلها، أو يقرأ عن تدخل الدول في أمور دول أخرى، وما جرَّ ذلك عليها من ويلات لا بد أن يحسب ألف حساب قبل اتخاذ القرار، ولكن المشاهد على أرض الواقع أن الدول والساسة لا يعتبرون بما جرى من أحداث ماضية تشبه ما يجري في الحاضر.

وأسباب ذلك كثيرة، منها: ظن قادة هذه الدول أن الأمور غير متشابهة، أو ظنهم أنهم يعيشون في ظروف أفضل وأقوى، والفرص سانحة أكثر من الماضي.

ومنها عدم معرفة الآخر وثقافة الشعوب الأخرى، ويقال: إن روزفلت أساء تقدير ستالين في نهاية الحرب العالمية الثانية، وكيف يمكن لروزفلت أن يفهم ستالين؟! بينما لم يكن لديه سوى فكرة ضئيلة عما كان عليه الاتحاد السوفيتي، وستالين الذي لم يسافر أبدًا خارج روسيا كيف يمكنه أن يعلم ما يدور في ذهن شخص مثل: تشرشل الذي كان في عالم مختلف؟!

وقد تزين الحاشية لبعض الحكام أن الشعوب تنتظر تدخلهم بفارغ الصبر كما حدث في العراق أخيرًا.

يتحدث وزير الدفاع السابق في الولايات المتحدة «مكنمارا» في كتابه «تأمل في

أحداث الماضي» عن أخطاء أمريكا في فيتنام فيقول:

«١- لقد أخطأنا في الحكم على النوايا الجيوبولتيكية لخصومنا، وبالغنا في الأخطار التي تشكلها إجراءاتهم على الولايات المتحدة.

٢- نظرنا إلى شعب وزعماء فيتنام الجنوبية من منطلق تجربتنا نحن؛ لقد أخطأنا في الحكم على القوى السياسية داخل البلد.

٣- إن أخطاءنا في الحكم على الصديق والعدو على السواء، عكست جهلنا العميق لتاريخ وثقافة وسياسة الشعب في المنطقة، ولشخصيات وعادات زعمائه»[١].

ورغم اختلاف الزمان والمكان بين فيتنام والعراق، وتباين أسباب الاحتلال، فالعراق في المنطقة العربية، وقريب من العدو الصُّهيوني، ثم البترول... إلخ.

رغم ذلك تكررت الأخطاء، ولم يفهموا طبيعة الشعب العربي المسلم، وظنّوا أن الشعب سيرحب بهم، وظنوا أن القوة القسرية هي الطريق الوحيد للحصول على النتائج.

(١) روبرت كوبر: «تحطيم الأمم» ص١٤٧.

أمريكا التي يجب أن تُعْرَف

حتى نتعرف على شيء من تاريخ أمريكا التي نصَّبت نفسها بعد سقوط الاتحاد السوفيتي قطبًا واحدًا، وتريد فرض إرادتها على العالم لا بد من الرجوع إلى البدايات، إلى الهجرات الأولى التي وطئت الأرض الجديدة.

لم تكن تلك الهجرات تجمع أناسا طامعين في الأراضي وفي العيش فحسب، بل كانت الهجرات الأولى تجمعات دينية مصابة بهوس (أرض الميعاد)، ففي يوم ٢٦/ ٢/ ١٦٢٠م وصل إلى شواطئ أمريكا أعضاء من جمعية يُدعَى أتباعها بـ (الطهوريون Puritans) جاءوا من بريطانيا وهولندا وألمانيا، ووصلوا إلى خليج (ماسوتشوستس) وأسسوا هناك أول مستعمرة[1]، جاءوا من العالم القديم كي يعيشوا حياتهم بالشكل الذي ترتضيه رؤيتهم الدينية والتي تقوم على أنهم الشعب المختار، على غرار خروج بني إسرائيل من مصر.

كان هدفهم تأسيس مجتمع تحكمه قوانين إلهية[2]، كان جميع أفراد المستعمرة أعضاء في الكنيسة، ومن المفروض عليهم الذهاب إلى الكنيسة، والحكومة تنتخب من هذا التجمع.

إن القادة الذين أسسوا وقادوا الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر

(١) قارن بهذه التسمية ما يفعله اليهود في فلسطين المحتلة.

(٢) مايكل توربت: «الدين والسياسة في الولايات المتحدة» ص٤٣، طبعة دار الشروق ٢٠٠١.

تخيلوا الأمة بشكل ما (إسرائيل الجديدة) التي قدر لها أن تشغل أرض الميعاد الغنية، وأن تنعم بالحرية، ولذلك يجب ألا نستغرب تلك العلاقة الحميمة بين أمريكا وإسرائيل.

كان مؤسسو أمريكا ورؤساؤها الأوائل متدينين، مثل (جيفرسون)، و(فرانكلين)، و(أدامز)، وكان الأخير وهو ثاني رؤساء أمريكا يؤمن بتعاليم المسيح الأخلاقية، ولم يؤمن بألوهيته، وانتقد انحراف المسيحية الذي تكرسه الكنيسة.

كما استلهموا الجمهورية الرومانية، فمجلس الشيوخ هو تقليد للمؤسسة الرومانية، هذا الشعور عند الأمريكيين ـ هو أنهم أمة مختارة ليقودوا العالم ـ جعل كل موقف معاد لهم غير قابل للفهم.

وبعد حرب الاستقلال عن الوطن الأم (إنجلترا) أقاموا وطنية لهم يجب على جميع المهاجرين الانصهار بها، وقوام هذه الهوية: (البروتستانت، الأنجلوسكسون، الأبيض)، ويرمزون لها بـ (WASP)، ولذلك قضوا على الهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين؛ لأن البيض بحاجة للأرض.

وفي نهاية القرن العشرين دخلت أمريكا حلبة الصراع الدولي كإمبراطورية لا ترى أن للأرض حدودًا واضحة، بل حركة قابلة للتوسع باستمرار!!

ويتساءل صاحب كتاب «ما بعد الإمبراطورية»: لماذا لم تعد هذه الدولة الكبرى متسامحة وعقلانية؟ لماذا تصر على الإضرار بالاستقرار العالمي، هل لأنها بالغة القوة؟ أم لأن العالم بسبيل الخروج عن السيطرة، أو أنها تخاف من العزلة وأن تجد نفسها وحيدة في عالم لم يعد بحاجة لها؟[1].

(١) إيمانويل تود: «ما بعد الإمبراطورية» ص٤٢.

إنها دولة متحضرة في واجهتها، ولكنها بربرية متوحشة في صميمها، وهي التي تحالفت مع قوى الاستبداد في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية لتنفيذ مشاريعها من خلالهم، ومع ذلك فهي تدعي أنها تحمل رسالة إنسانية، فهل ضرب البشرية بالقنابل الذرية رسالة إنسانية؟ وهل فتح السجون السرية في العالم هو شأن إنساني؟!

إن مشكلة أمريكا هي ذلك التحالف الشيطاني بين المنظمات المتطرفة والصهيونية وقراءة الأحداث من منظور (توراتي) وكل شيء يجب أن يسخر لهذا التحالف.

ولكن لا بد هنا من أن نفرق بين شرائح من الشعب الأمريكي المغرر بهم من قبل الإعلام وعندهم من السطحية السياسية ما يصدقون به حكوماتهم وبين الثقافة الأمريكية التي تقدس القوة وتنظر للشعوب الأخرى نظرة استعلائية.

وأما النواحي الإنسانية التي نلاحظ عند أفراد من الشعوب الغربية فهي فضائل (جذبية) كما يسميها المفكر الجزائري مالك بن نبي، وليست فضائل إشعاعية، أي إنها فضائل فيما بينهم وليست لغيرهم.

كيف يفكر الغرب

عندما يتخذ الغربيون قرارًا سياسيًّا يحسبون للغير حسابًا، وذلك لما يعلمونه من أنفسهم في معاركهم السياسية والدبلوماسية، حيث الأخذ والرد، وحيث التنازلات لا تكون إلا بميزان دقيق. فيظنون أن الآخرين مثلهم، ولكنهم يفاجئون بأن المسلمين والعرب خاصة يتنازلون دون مقابل، ربما ليثبتوا حسن نواياهم وطيب عنصرهم؟!

هذا واقع مشاهد، ففي قضية فلسطين، وفي السنوات الأخيرة تم تنازلات لم يحلم بها العدو، ويمكن أن نقيس عليها كثيرًا في علاقات الدول العربية مع القوى الكبرى.

في بداية القرن الماضي ومنتصفه كان هناك من السياسيين من يفاوض ويفرض شروطه، ولكن هذا الجيل ـ رغم تغربه ـ قد انتهى، وجاءت أجيال تظن أن قبولها بكل شيء هو السياسة، وحتى يرضى الغرب عنها ولن يرضى، ولا بأس أن نأخذ مثالاً من التاريخ؛ فبعد الحملة الصليبية على مسلمي الأندلس خشي (فريديناند) أن يؤدي طرد ملك غرناطة (أبو عبد الله الصغير) إلى المغرب إلى رد فعل عنيف من جانب دول المغرب الإسلامية، غير أن الراهب (خمينيس) أقنعه بأن لا خطر ألْبتة من وراء إخراج ملك غرناطة، لأن حالة الخلاف والشقاق هناك لن تسمح لأهلها بالإقدام على مثل هذا العمل.

ومثال آخر من التاريخ الحديث يكشف عن عقلية الغرب وكيف ينظر إلى العلاقات السياسية مع المسلمين.

يتحدث المفكر الجزائري مالك بن نبي عن فترة الحرب الباردة بين الغرب والاتحاد السوفيتي وكيف أن الغرب مع عداوته للشيوعية، ولكنه لا يريد انتصار الإسلام، يقول: «المسيحية أمام قوتين متصارعتين، إحداهما توحد الله والأخرى تنفي وجوده، ومنطقيًّا يجب على المسيحية أن تؤيد الإسلام، ولكنها على عكس ذلك فهي تريد الانتصار للشيوعية على الإسلام[1]، المسيحية تدرك أن الشيوعية غير مستقرة، وأنها لا تنشئ حالة استقرار، ماركس قال: املأوا البطون وانتهى كل شيء، أما إذا انتصر الإسلام فإن التاريخ ينتهي، وتأتي نقطة النهاية بالنسبة للمسيحيين ويتحقق وعد الآية الكريمة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾»[التوبة: ٣٣][2].

عندما انتصرت الشيوعية في روسيا وقامت لهم دولة، فإن الدول الغربية حاولت إثارة المتاعب في وجه هذه الثورة، «وقد عرض بعضهم تسليح تركيا لمحاربة روسيا، حيث سينضم إلى الأتراك الداغستان والتتر، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي، ولا راق لهم تسليح الأفغان ولا بخارى في بلاد التركستان، وما ذاك إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم من الخطر (البولشفي) مهما كان الخطر البولشفي عظيمًا»[3].

هل نقف موقفًا سلبيًّا تجاه هذا النوع من السلوكِ أم أن الأفضل هو معرفة هذا الغرب على حقيقته، فهذا مما يساعد على التعامل معه بشروط أفضل.

(١) استطاعت أمريكا والغرب الاستفادة من جهود المسلمين لإسقاط الاتحاد السوفيتي والشيوعية، وبعد أن استراحوا من الشيوعية التفتوا للإسلام والمسلمين.

(٢) حديث لوفد إسلامي زار الجزائر، نشر في مجلة المعرفة التونسية، العدد الثامن، عام ١٩٧٥، أي بعد وفاة مالك بن نبي.

(٣) شكيب أرسلان: «حاضر العالم الإسلامي» (١/ ٢٣٣).

بين الدولة والحكومة

في محاولة للفهم السياسي في أمور قد تشتبه أو يؤدي الخلط فيها إلى نتائج غير دقيقة لا بد أن نفرق بين الدولة والحكومة.

الدولة: هي الكيان السياسي للأمة أو الكيان السياسي والإداري للمجتمع، هي شخصية معنوية، والشرط الأول لوجودها هو تحقيق أهداف الأمة والمحافظة على ثقافتها وحضارتها وعقيدتها، المواطنون لهم ارتباط وثيق بالدولة لأنها إلى جانب العدالة وكرامة المواطن.

أما الحكومة: فهي أداة تنفيذية لمفهوم (الكيان السياسي) هي الوكيل عن الدولة، تمثل الدولة وليست بديلاً عنها.

الحكومة تأتي وتذهب، بينما مفهوم الدولة باق، الدولة ليست شرطي سير أو رجل أمن في الشارع، بل هي الإطار السياسي للأفراد.

الذي يعارض مفهوم الدولة يتحول فعله إلى الهدم وتقويض الأسس، أي يدخل في الأمن الاستراتيجي. أما الذي يعارض الحكومة وأخطاءها وطريقة أدائها فهذا من حقه، بل هو واجب إذا كان للتسديد والإصلاح ولا يعتبر فعله خطرًا على البلاد.

الوظائف التي تمارسها الحكومة هي من أجل خدمة الكيان السياسي (الدولة)، وليست الدولة في خدمتها، وقد تطغى الحكومة على الدولة عندما لا تتقيد بدستور أو شريعة.

الحكومات العربية التي تأسست بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة اتفاقيات أو تقسيمات المنتصر الأوروبي، هذه الحكومات لم ترقَ إلى ترسيخ مفهوم الدولة أو الكيان السياسي الذي يمثل الأمة، الدولة التي تخطط للمستقبل وتهتم بالفرد والمجتمع وتحافظ على هوية الأمة، ولذلك فقد فشلت هذه الحكومات فشلاً ذريعًا، لأن همها الأكبر كان في تقليد الغرب أو الشرق.

وحتى هذا التقليد كان مبتسرًا ومشوهًا، لم يشعر المواطن بالانتماء الحقيقي لهذه الحكومات، فهي في واد والشعب في واد آخر، بل أصبح الطابع المميز للحياة السياسية هو طابع العداء والاحتيال المتبادلين بين الحكومة والمواطن، الحكومة تتربص بحياة المواطنين وأرزاقهم، والمواطنون يعتبرون الحكومة عدوًّا قاهرًا يتربصون بها الدوائر، وربما يسطون على ممتلكاتها كلما تهافتت إلى الضعف وفقدت قوتها.

الحكومات التي نبتت بعد الحرب العالمية الأولى لم تنفذ مفاهيم الدولة، واستمرت حكومات ضعيفة تخشى من أي نبأة ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤]؛ لأنها ابتعدت عن هوية الأمة وثقافتها، ولذلك كثرت الانقلابات العسكرية، وكثرت الخيانات، فالجندي والضابط ليس عندهما كبير انتماء لهذه الحكومات، وتأتي أوقات أو ظروف لن يدافع عنها إذا تعرضت للمخاطر، بينما نجد دولة مثل ألمانيا لم يستطع تقسيمها القسري خلال خمسين عامًا أن يباعد بين شرقيها وغربيها ورجعت موحدة.

أسس الرسول ﷺ للمسلمين في المدينة دولة، أسس كيانًا سياسيًّا، وهي المؤسسة التي لم تعرفها قريش ولا المدينة ولا عرب الشمال، أسس للمسلمين دولة مسئولية وليس دولة غنيمة؛ لأنها ما وجدت إلا لخدمة الأمة.

مرسوم (كركلا) والحوار مع ضفتي الأطلسي

بعد أحداث (١١ سبتمبر) بعث الكاتب الفرنسي (كزافييه) رسالة من أمريكا إلى صديقه الكاتب (ريجيس دوبريه)، رسالة في مائة صفحة بالإنجليزية، ضمنها مرافعة عن ضرورة اتحاد أوروبا وأمريكا في (ولايات غربية متحدة) لتشكيل جبهة واحدة للدفاع عن حضارة الغرب في مواجهة الخطر الإسلامي.

ترجم (دوبريه) هذه الرسالة إلى الفرنسية ووضع لها عنوان «مرسوم كركلا»، وكركلا هذا هو إمبراطور روماني وحَّد الدولة بإصداره المرسوم الذي أقر بحق المواطنة لجميع سكان الإمبراطورية.

كاتب الرسالة (كزافييه) يعتقد بالتفوق الحضاري للغرب على حضارة الإسلام، مثله مثل رئيس وزراء إيطاليا (بيرلسكوني)، يصف دوبريه صديقه صاحب الرسالة بأنه صليبي[1]، وقد تطوع هذا الصليبي مع الوحدة الأمريكية في أفغانستان، وقتل هناك بقصف أمريكي على سبيل الخطأ كما يقولون.

هل هذا الكاتب متفرد برأيه ويعبر عن فئة قليلة من المجتمع الأمريكي، أم إنه يعبر عن غالبية صامتة؟ وهل يريد الغربيون التعايش مع الحضارة الإسلامية أم يؤمنون بحتمية الصراع وإن طرحوا شعارات معتدلة؟ وإذا كان الفرنسيون يشكون ويضجون من محاولات أمريكا للهيمنة على العالم وللهيمنة الثقافية بشكل خاص، فكيف يكون موقفنا نحن المسلمين؟

(١) إذا كان هذا وصف الصديق له، فبماذا نصفه نحن؟!

يقول عالم الاجتماع الفرنسي (بيار بورديو): «إن الرأسمالية الأمريكية تجهل البعد الاجتماعي، ولا تعترف حتى بحق غيرها من الرأسماليات، إنها إمبريالية جديدة، الإمبرياليات القديمة كانت تطبق مبدأ (فرِّق تَسُد)، أما الأمريكية فشعارها (وحِّد تَسُد)، أي: أن يصير العالم كله متأمركًا».

ويقول الكاتب إدوارد سعيد الذي عاش في أمريكا مدرسًا في جامعاتها: «دأبت دائمًا أن أوضح أن سعي منظمة التحرير إلى كسب تعاطف الرئيس الأمريكي هو (وهم) كامل؛ لأن كل الرؤساء في العقود الأخيرة كانوا صهاينة، ولكن يمكن تنظيم حملة دفاعًا عن الحقوق الفلسطينية ومخاطبة الشعب الأمريكي»[1].

يتكلم الخبير الاقتصادي (شتبغلتس) عن طرائق البنك الدولي في الاتفاق مع حكام الدول الصغيرة الذين يبيعون صناعات دولهم، ويرهنون شركات الكهرباء والمياه في بلدانهم، ويتهم هذا الخبير الولايات المتحدة بأنها تشارك في هذه الأساليب والخطط لفرض العولمة الاقتصادية على الدول الفقيرة أو المستجدية.

إن بذرة العنصرية والاستعمار متجذرة في الحضارة الغربية، وإذا كانت مغطاة بقشرة رقيقة فسرعان ما كشفت عن نفسها في أول اختبار لها، ومع ذلك فإن ما يطرح على الساحة هو الحوار، فهل هو المطلوب الآن؟ إن الحوار في حد ذاته ليس نقصًا بل هو مطلوب، ولكن لا بد في الحوار من أن يعترف بك الطرف الآخر حتى لا يتحول الحوار إلى استجداء للحقوق، أو لكي نحصل على (عفو) أو اقتراب من أصحاب الشأن الذين يمعنون في ترسيخ السيطرة.

(١) «الحياة»: ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٠.

الحوار يفترض الندِّية بين الطرفين، ولا يعني النِّدِّيَّة في المعدات العسكرية أو الاقتصادية أو النفوذ السياسي، بل أن يعترف بك المحاور الآخر ويحترم ثقافتك وعقيدتك واستقلالك.

فهل المحاور الأمريكي هو كذلك؟!

يتذكر الكاتب الصحفي جميل مطر في حوار (دبي): إنه في معظم اللقاءات السابقة كان الطرف الأمريكي يركز على اتهامات معينة ويظل يكررها، وكأن الهدف من الحوار إجبار المحاور العربي على الاقتناع بضعفه وهزيمته وبؤس حاله.

ويتذكر أيضًا أن بعض المحاورين العرب كان يتقمص شخصية محاوره، فيفتك بنفسه وبلاده وثقافته وعقيدته، ويسخر من جهل شعبه وقياداته، ويلقن زملاءه العرب دروسًا في قيم العولمة والحضارة الغربية. (١)

فهل هذا الحوار المطلوب؟

وهل من اللائق أن نظهر الضعف أمام الآخر، أم نعتمد صيغة تناسب حضارتنا وثقافتنا؟

(١) «الحياة»: ٨/ ٥/ ٢٠٠٢.

فكرة التقدم

هل البشرية تتقدم نحو الأحسن وبشكل مستمر، وهل هي في صعود دائم وكل عصر هو أفضل من الذي قبله؟

هذا ما حسبه كتّاب ومفكرو أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من أمثال فولتير وروسو وأوجست كونت، ويسمون هذه الفترة: عصر الأنوار أو التنوير.

ويرى (كونت): «أن التطور يقوم على افتراض عقلي يقوده بصورة آلية حتمية نحو التقدم المستمر، فما من حقبة تاريخية إلا وهي أقرب إلى الرشد من التي سبقتها».

لقد سارت الحضارة المادية في الغرب شوطًا واسعًا جعل أهله يشعرون أنهم شادوا حضارة فاقت كل ما سبق من الحضارات.

ولا شك أن فكرة (التقدم) كان لها نتائج إيجابية من ناحية التقدم المادي والعلمي وبعض النواحي الإنسانية إلا أنها أعطت الغرب شعورًا غامضًا ملأهم بالزهو، وجعلهم ينظرون إلى الشعوب الأخرى نظرة استعلاء واستكبار، بل اشتط بهم الخيال ونشوة الانتصارات العلمية وتجمع الأموال بين أيديهم نتيجة العلم والنشاط التجاري والصناعي، وكذلك نتيجة الاستعمار والنهب المنظم من القارات الأخرى، اشتط بهم الخيال إلى اعتقاد أن الإنسان سيصل إلى درجة يكون بمنأى عن الحروب وويلاتها والعداوات المدمرة بين الشعوب، فالتقدم العلمي سيحل كل المشاكل الإنسانية؟!

ولكن الذي حدث بعدئذٍ أثبت أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن إدراك حقيقة الإنسان، والغرب وقع في شر الحروب في بداية القرن العشرين ومنتصفه، وما زال يصنع أفتك الأسلحة التي تدمر البشرية، وينفق الأموال المكدسة على ذلك.

وفي هذا العصر جاءت حركة الاستعمار أي سرقة الأوطان، أوطان شعوب لا تملك السلاح الكافي أو المكافئ. وإن اتفاق الغرب على الظلم الفادح الذي لحق بالشعب الفلسطيني لهو أكبر مثال على ذلك.

هناك نواح إنسانية تقدمت مثل الطب ووسائل الراحة للإنسان، ولكن ما الفائدة إذا اختصر الإنسان الوقت بركوب الطائرة وأنفقه بعد ذلك في الموبقات والتفاهات. إن الجانب الأخلاقي ينحدر إلى ما يصادم الفطرة ويصادم الإنسانية، ومن المؤرخين الذين لا يرون أن التقدم في صعود مستمر المؤرخ الألماني (شبنجلر) الذي كتب عن (أفول الغرب) لأنه وصل إلى مرحلة الحضارة بعد أن كان سابقًا في مرحلة الثقافة، وهو شبيه بكلام ابن خلدون.

وكذلك المؤرخ البريطاني (توينبي) الذي اعتبر أن الغرب في انحدار، لأن حضارته بلغت أوجها، ولم يعد في ميسورها مواصلة الصعود؛ لأن الحضارة والتقدم عنده ليست بالمظهر المادي، ولكن بالروح الكامنة التي تستطيع مجابهة المشكلات.

إن قادة التقدم المادي اليوم يقضون نهارهم في المعامل ومراكز التجارب دون التفات لما يقع خارج عملهم من آفات أخلاقية.

إن فكرة التقدم المستمر فكرة خيالية مادية، فإن تاريخ الحضارات وتاريخ الإنسان يثبت أنه في صعود وهبوط، والإنسان على حقيقته هو كما وصفه القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦-٧]

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر: ١-٣]

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين: ٥-٦]

فحسب عمله للصالحات هو في تقدم أو يرد إلى أسفل سافلين، التقدم الحقيقي هو في تحقيق إنسانية الإنسان وتحقيق الغاية التي خلق لأجلها.

حزب الفساد

بعد أن سقطت أو ضعفت كثيرًا الأحزاب العقائدية التي وجدت لها سوقًا رائجة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، هذه الأحزاب التي كانت تناوئ الإسلام وتريد فرض فكرتها على الشعوب العربية كالشيوعية والاشتراكية (بأشكالها وألوانها المتعددة) والقومية بمعناها العنصري الضيق. بعد هذا الانحسار الذي أصابها لم يعد أمام مخططي سياسة محاربة الإسلام إلا أن يلجأوا إلى وسيلة أخرى تقف أمام موجة الرجوع إلى الدين، وسيلة رخيصة سهلة وهي نشر الفساد الخلقي بين صفوف الناس وبين الشباب والشابات خاصة.

وهذا له وسائل كثيرة منها: تشجيع الغناء والمغنين والرقص والراقصين، وإقامة الحفلات على المدرجات الكبيرة، وإنشاء المهرجانات التي تفتح وتبرر باسم الثقافة، وتشجيع الفنون واللهو (البريء)، فهذه الأمور تشغل الشباب والشابات عن التفكير في القضايا الجادة، سواء كانت ثقافية أو سياسية.

ثم جاءت بعض القنوات الفضائية لتزيد الطين بِلَّة، أو لتزيد في الطنبور نغمًا كما يقال. والذي يشاهد بعض هذه القنوات لا يستطيع إلا أن يجزم بأنها تسير ضمن مخطط واضح لإفساد الناس وإشغالهم بالتوافه.

إن خطورة هذه القنوات ليس في إشاعة الفساد وحسب، ولكن هناك مخدر آخر يؤثر على المشاهدين سواء علمت هذه القناة أم لم تعلم، وهو تشجيع أحلام اليقظة، فمن خلال المسلسلات أو الأخبار غير الدقيقة والتحليلات التي كثرت

في هذه الأيام من أصحاب الخبرات الاستراتيجية!! يعيش المشاهد أحلامًا وهمية، فيظن أن الواقع كما يشاهده على الشاشة.

أصحاب (الأيدلوجيات) المنحسرة يشجعون هذا الفساد، فليس عندهم شيء يقدمونه للناس، والحقيقة أنهم لو كانوا أصحاب مبادئ لاحترموا الفكر الآخر، واعترفوا بالهزيمة وراجعوا أنفسهم، وفكّروا مليًّا بالتحولات الواقعة، ونظروا إلى الإسلام نظرة مجردة عن الهوى، فالإسلام دين يحرر الإنسان من قيود العبودية لغير الله، والإسلام لا يقيد حرية الإنسان التي يحتاجها في بحثه عن المعاني الصحيحة والاجتهاد فيما ينفع الإنسان.

إن استرقاق الإنسان لا يكتب له الدوام، ولا بد أن ينتبه يومًا للوسائل التي تحاول إخضاعه وتسخيره لشهوات فئة محدودة.

بعض الدول كانت تستعين بأصحاب هذه المذاهب لمواجهة التيار الإسلامي، ولكن بعد ضمور هذه الأفكار وانكماش هذه المذاهب لم يبق لها إلا أن تشجع الفساد الخلقي والمالي، فعندما يقبل الموظف أو أي فرد في مؤسسة الرشوة فهذا دليل على انحطاط أخلاقه وانهيار شخصيته بحيث يصبح لا قيمة له.

هل نقول إن حزب الفساد هو الحزب الكبير الآن في الوطن العربي، وهو الحزب الوحيد المصرح له بقوة أن يمارس هوايته، ربما يكون ذلك، ولكنه حزب ضعيف: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

لا شك أن الاستقامة تحتاج إلى نضال طويل كي تفرض نفسها في هذا الوسط، تحتاج إلى إرادة قوية وتضحية معنوية ومادية، أما المهادنة السلبية التي تردد: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون» فلا تنفع في هذا المقام.

على حافة الهاوية

لماذا نشعر في حياتنا السياسية وكأننا دائمًا على حافة الهاوية، نخشى المستقبل، ونقبل بالواقع خوفًا من القادم، وحتى أصبحنا في بعض الحالات ـ وهو أمر في غاية الغرابة ـ أصبحنا نخشى على بعض النظم الاستبدادية لأن ما بعدها شر منها.

إنه من المفارقات ومن غير المعقول أن يشترك العامي عندنا والمتعلم في هذه المقولة: «الذي تعرفه من الحكام الظلمة أفضل من الذي لا تعرفه، لأن الأول قد شبع من النهب العام، والثاني سيبدأ من جديد».

في نهاية الدولة العثمانية ورغم ضعفها وتسلط الاتحاديين عليها، فإن العلماء والساسة المستقلين في البلاد العربية كانوا مع الدولة خوفًا من القادم الأسوأ وهو الاستعمار البريطاني والفرنسي، ولكن ماذا حلَّ بالشعوب العربية بعد رحيل هذا الاستعمار؟!

يعلق الشيخ علي الطنطاوي- رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وبنبرة حزن وأسى، يقول: «إن البذور التي بذرها المستعمر قبل رحيله أنبتت نباتًا لم نذق مثل مرارته أيام الاستعمار، فكيف أخرجت أرضنا السم الذي يودي بنا؟ كيف رأينا ممن خرج من أصلابنا من هو أنكى علينا من عدونا؟ لماذا لا يأتي عهد إلا بكينا منه وبكينا بعده عليه؟ استكبرنا تقسيم فلسطين ثم رأينا ما هو أكبر فطلبنا التقسيم، وأبينا ما قبل ١٩٦٧ ثم عدنا نطالب بإزالة آثار العدوان... »[1].

(١) «ذكريات»: ١/ ١٦٧.

لم يذكر لنا الشيخ الطنطاوي سبب هذه الحالة المؤسفة والتي وصفها أيضًا الشاعر العربي قديمًا:

فليت جَورَ بني مروان عاد لنا وليت عدل بني العباس في النار

هل السبب أننا لم نمارس الفعل السياسي وعلى وجهه الصحيح؟ وهل لأننا لم نرتب البيت من الداخل، ولم نتعود على التعاون المنظم، وعلى قيام المؤسسات التي تنتج حكومات لا نتوقع منها الظلم والأذى؟.. هل لأننا لا نملك الخيارات المناسبة التي فرطنا فيها أو فرطنا في استحداثها، ولذلك نرضى بالموجود؟

يعلق المؤرخ عبد العزيز العظمة في «مذكراته» على نجاح الاتحاديين في تركيا في الدعاية لآرائهم، بأن المجتمع السوري ليس فيه مرجعية سياسية يرجع الناس إليها، أي: لا يوجد ثقافة سياسية بالمعنى العلمي، لا يوجد شخصان يعملان في الجهاز السياسي يفكران تفكيرًا متماثلاً.

نحن لسنا متخلفين في التصنيع وغيره من التقدم المادي وحسب، فربما يكون هذا أسهل الأمور، فتعلم التقنية الحديثة ليس بالأمر العسير، ولكننا متخلفون في الفكر السياسي عندما تختلط علينا الأمور ولا ندري عن الصالح والأصلح والسيئ والأسوأ، وعندما نفضل الاستبداد الذي يرعى مصالحنا الخاصة وأنانيتنا المفرطة، وعندما لم يعد باستطاعتنا التفريق بين الثوابت والمتغيرات فننساق إلى الجمود الذي يفقدنا الحيوية المطلوبة لمعالجة مشاكلنا.

كيف يتعامل الغرب مع أصدقائه

إنها سنة كونية أو سنة اجتماعية: «إن من يحتمي بالعدو ويلجأ إليه ويتنازل عن الأوطان، ويخون أمته ودينه عبادة منه للرئاسة والجاه والمال، من يفعل هذا لا بد أن ينكشف أمره ويكون عمله وبالاً عليه وتكون آخرة أمره خسرًا».

والتاريخ يقدم لنا نماذج كثيرة في القديم والحديث عن رجال ظنّوا أن صفقاتهم مع العدو مانعتهم من العقاب في الدنيا قبل الآخرة، وظنّوا أنهم سينالون خيرًا في الدنيا، وإذ بالعدو الذي اطمأنوا إليه ينقلب عليهم ولا يقيم لهم وزنًا.

كانت قريش قبل البعثة النبوية تعلم ما يدور حولها من صراع بين فارس والروم، وانتقاصهم من أطراف الجزيرة العربية، وكانت قريش بعيدة إلى حد كبير عن هذا الصراع بعد أن أهلك الله أصحاب الفيل.

ولكن عثمان بن الحويرث بن أسد كان من الزعماء الذين يملكون الاستعداد للتنازل عن الأوطان في سبيل رئاسته، فذهب إلى قيصر الروم وعرض عليه إلحاق مكة بدولته على أن يكون هو زعيم مكة، ولكن قريشًا التي اعتادت أن لا يملكها أحد ثارت على ابن الحويرث وقتلته.

كان النعمان بن المنذر الغساني أمير بادية الشام من قبل الروم، أي موظفًا عندهم، وقد شهد غدر الروم بأبيه وأخذهم إياه بالحيلة، وعندما أراد الأخذ بثأر أبيه اجتمع عليه الروم واعتقلوه وأرسلوه إلى القسطنطينية وعاش هناك أسيرًا.

وفي التاريخ الإسلامي الذي فيه عبرة، أن ملك طليطلة الأندلسية يحيى بن

إسماعيل الهواري، والملقب بالمأمون، والذي تملك بعد أبيه عام ٤٣٥هـ كان عاكفًا على اللذات والخلاعة، وقد أسرف في مصادرة أموال الرعية، وهادن النصارى الإسبان الذين بدأت أطماعهم تمتد إلى الممالك الإسلامية. أراد المأمون بسبب طيشه وجشعه أن يستنجد بهؤلاء الإسبان لتملك مدائن أخرى من الأندلس ليست تابعة له، فكاتب طاغيتهم: أن تعال في مائة فارس والملتقى في مكان كذا، وسار المأمون في مائتين، وأقبل الطاغية في ستة آلاف وجعلهم كمينًا له، فلما اجتمع الملكان أحاط بهم الجيش الإسباني فندم المأمون وتحير.

فقال له الفرنجي: يا يحيى، وحق الإنجيل كنت أظنك عاقلاً وأنت أحمق، جئت إليَّ وسلمت مهجتك بلا عهد ولا عقد، فلا نجوت حتى تعطيني ما أطلب. قال يحيى: فاقتصد!!

فسمى الفرنجي حصونًا كانت ليحيى يريدها وفرض عليه مالاً في كل سنة، ورجع يحيى ذليلاً مخذولاً، وذلك بما قدمت يداه. [1]

أما الذين تعاونوا مع الغرب في العصر الحديث ورجعوا مخذولين فهم كثر، ولا يأخذ العبرة من الماضي إلا أولو الألباب وأهل العلم.

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٠).

بين إسكندر الغرب وإسكندر المسلمين

تحدث القرآن الكريم عن النموذج والمثال للملك المسلم المصلح في الأرض صاحب السيرة الحميدة والحزم المتيقظ والتأييد المتواصل، أينما اتجه فهو للإصلاح ودعوة الناس إلى الخير ومساعدتهم على دفع الشر وإقامة العدل بينهم، إنه ذو القرنين كما ذكر في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣-٨٤] وقد تزود هذا الملك الصالح لتنفيذ رسالته بالعلم والخبرة العملية ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أي علمًا ومعرفة بالسنن الكونية وأقيسة يتوصل بها إلى معرفة الأشياء.

بهذا التمكين من الله سبحانه وتعالى، وهذا العلم، استطاع هذا الملك الصالح أن يقيم السد الذي يمنع فساد يأجوج ومأجوج، فهو يساعد الضعفاء والمظلومين من مخالب التوحش والخراب.

هذه هي أهداف الرسالات، وهذه هي أهداف المسلمين، ألا وهي الإصلاح في الأرض، ولكن إسكندر اليونان[1] الذي شرّق وغرّب فاتحًا يستولي على المدن أو يبني مدنًا جديدة، ماذا أبقى بعد رجوعه من الشرق وبعد هلاكه، ما هي الآثار الإصلاحية التي خلفها؟ بعد ما يقرب من عشرين عامًا من هلاكه تمزقت

(١) أخطأ بعض المفسرين حين ظنّوا أن إسكندر اليونان هو ذو القرنين، وإسكندر اليونان كان كافرًا، وهو تلميذ الفيلسوف المشهور أرسطو.

إمبراطوريته إلى ثلاث ممالك. هناك فرق كبير بين من يخوض الحرب ذودًا عن العقيدة وذودًا عن الحق، وبين من يقتحم الحروب ليقال: إنه دوخ الأمم وفتح البلدان، وهذا هو الفرق بين فتوحات المسلمين وبين استيلاء الغرب على البلدان والقارات.

المسلم إذا قام بسياحة جغرافية للتعرف على أقاليم الأرض وطبائع الشعوب والدعوة إلى الإسلام، هذا المسلم لا يفكر في استغلال سكان هذه الأقاليم ولو كانوا بدائيين سذجًا، فهذا الرحالة ابن بطوطة من أهالي طنجة من المغرب وصل إلى أقصى الشرق ودخل أكثر البلدان وطالت رحلته أكثر من عشرين سنة، وكان من علمه وسمته أن عمل قاضيًا في بعض المناطق، ولكنه لم يفكر هو وأمثاله من الرحالة المسلمين في استعمار البلدان التي وصلوا إليها. (١)

وصل رحالة غربيون إلى إفريقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فماذا فعلوا؟ وكيف تصرفوا؟.. استعمروا شعوبها باسم التمدين والتقدم، وقالوا إنهم اكتشفوا بلادًا وكأنها لم تكن موجودة، بل سُمِّيَت مناطق كبيرة باسم أحد هؤلاء الرحالة الإنجليز (روديسيا) (٢)، هذا الغربي يجد قومًا بسطاء فيخدعهم بعلومه الحديثة وأساليبه الماكرة، ويعقد مع رؤسائهم العهود وينكثها، ويستولي على أراضيهم، بل أصبحت له ثقافته (الاستعمارية) الخاصة في تصميم المنزل المناسب للبلاد الحارة أو الملابس الخاصة التي لا تقربها الحشرات.

ليس عند المسلمين إبادة على نطاق جماعي كالذي ارتكبه الأوروبيون في

(١) نتكلم هنا عن الاستعمار بمعناه الأوروبي المرادف للاستغلال ونهب خيرات الشعوب.

(٢) تم استبدال الاسم بعد استقلالها.

الأمريكتين وأستراليا، ليس هناك ثقافة عنصرية كالتي وافقت عليها كنيسة الإصلاح الهولندية في جنوب إفريقيا.

هل كان المسلمون على خطأ حين لم يستعمروا البلاد التي وطئتها أقدامهم؟.. كلا!.. هي حضارة المسلمين وثقافتهم ولا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك، فليس في الإسلام نزعة الفوقية والأنانية الاقتصادية، إنه البَوْن الشاسع بين غايات الحضارة الإسلامية التي بُنِيت على الأخلاق والمبادئ العليا، والعبودية للَّـه تعالى، وبين الحضارة الغربية التي قامت على أساس من المدنية اليونانية والرومانية وعلى أساس الرأسمالية النفعية وطلاء خارجي من النصرانية.

السياسة ليست انتخابًا فقط

كيف يختار من لا يعيش في مجتمع يرجع الناس فيه سواء في مشوراتهم أو في أمورهم العامة إلى قيادة ترشدهم وتسوسهم، أي في مجتمع سياسي بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ إيجابية، ففي مجتمعاتنا اليوم كل خطاب يستطيع خداع كثير من الناس، وكل مؤامرة على الدين وعلى الأوطان تمر دون أن يشعر بها هؤلاء.

العمل السياسي إذا لم يكن واسع الجوانب، له صلة بالمبادئ وله صلة بالثقافة والعلم والأمور الاجتماعية والاقتصادية، وبمعنى آخر إذا لم يكن (حضاريًّا) فإن الناس سيفقدون التراحم والتآلف، وتذهب الثقة، وتبدأ المناكفات ويظهر الاختلاف والبعثرة النفسية.

دخل الشيخ حسن البنا رحمه الله الانتخابات العامة عندما كان في مصر أحزاب وبرلمان، وترشح عن مدينة الإسماعيلية، ولكن الحكومة أصرّت عليه أن ينسحب من هذه المعركة الانتخابية ويبتعد عن هذا الموقع، وانسحب الشيخ، وقد تكون المصلحة في ذلك؛ لأن مثله يجب أن يكون فوق البرلمانات، وفوق التنافس الانتخابي. وترشح الشيخ مصطفى السباعي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - عن مقعد شاغر في مدينة دمشق، وكان ذلك عام ١٩٧٥م، وكان منافسه على هذا المقعد ذو توجهات بعثية قومية، ووقفت الحكومة مع هذا المنافس، ووقفت مصر (عبد الناصر) ضد الشيخ السباعي، وكانت النتيجة أن فاز منافسه، وكانت لهذه المعركة الانتخابية آثار سيئة على الدعوة.

في مثل هذه المعامع السياسية نجد من يعرف مداخلها ومخارجها، وينصح بأمور قد تكون هي الأفضل في وقتها، فكان من مقترحات عبد المجيد باشا، وهو من أعيان المصريين، «أن يؤيد الإخوان المسلمين في دوائرهم الانتخابية رجالاً لهم ثقافة رفيعة وخلق رضي ودين قويم، وكان الجميع يكرهون أن ينقلب الإخوان حزبًا سياسيًّا»[1].

ويتحدث الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء الجزائريين بعد ابن باديس عن تجربته فيقول: «ورأيي في الزعيم السياسي المثقف في أمة كأمتنا الشرقية أنه يجب عليه أن يترفع عن الميادين التي تشغله عن المهم وتلهيه بالصغائر وتخلق له الخصوم، وأن يصرف همه كله إلى تربية الأمة وجمع صفوفها، فإذا تم له ذلك أصبح مرهوبًا من الحكومة، وأصبح محبوبًا عند الأمة، وبذلك يصبح متحكمًا في الانتخابات يسيرها في المصلحة الوطنية»[2].

إن من السياسة أن يكون لأهل الفضل والإصلاح مرتكزات قوية اجتماعية وثقافية بعيدًا عن الدخول في الدروب الضيقة.

يقول الشيخ رشيد رضا عن الزعماء الاجتماعيين: «الذين يشرفون على الأودية والترع التي تجري فيها سيول الحوادث الجديدة، ويقدرون على تحويلها إلى حيث تكون محيية لأرض الأمة»[3].

لقد توسع مفهوم السياسة ليطال أعمالاً كثيرة، فكل عمل يقوم به المسلم

(١) أحمد حسن الباقوري: بقايا ذكريات، ٤٨.

(٢) الآثار الكاملة، ٥/ ١٣٦.

(٣) مجلة المنار، مجلد ٩ ص١٢٨.

لخدمة الأمة هو عمل سياسي، الناس عندما يمدحون السياسي يقولون عنه (داهية)، ونحن لا نريد دهاة، ولكن نريد أعمالاً إيجابية ومجتمعًا سياسيًّا يعرف واجباته وحقوقه، ولن ينجح أي إصلاح سياسي لا ينبثق من داخل الفرد، من إيمانه وتحديه لكل ضغط خارجي أو داخلي.

عدوى الفساد

يقول ابن خلدون معلِّلاً اضطراب ملك بني إسرائيل، وعدم رسوخ أمرهم بعد خروجهم من مصر: «وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل، كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني مدين والروم واليونان والنبط وما لا يحصى كثرة وتنوعًا في العصبية واختلاف الآراء والأهواء، فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم، وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء.. »[1].

إن ما يجري اليوم داخل الكيان الصهيوني يشير إلى فساد عميق طال رئاسة الدولة ورئاسة الوزراء وبعض الوزراء، والكل متهم، إما بقضايا مالية أو قضايا أخلاقية. وكتبت صحيفة (يديعوت أحرونوت): «ماذا حصل لإسرائيل؟ لم نعد نستطيع إيجاد رجل مستقيم يتولى المناصب الرفيعة، شخصًا ليس حوله أية شبهة، ببساطة نريده نظيفًا لا يشتري منازل بسعر زهيد، وعلى سبيل الخطأ يجبرونه على بيعها بسعر غال!! »[2].

ويذكر كاتب آخر في صحيفة (هآرتس): «الروابط التي تجمع المجتمع الإسرائيلي ليست قوية كما كانت ذات مرة، المستوطنون اليهود يدعون أن واجب الاستماع للحاخامات أهم من واجب الانصياع لقوانين الدولة، الأصوليون

(١) المقدمة: ٢/ ٥٣٧.

(٢) القدس العربي: ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٧.

يعتقدون أن محظورات الدولة هامشية بالمقارنة مع فروض الشريعة اليهودية، والشباب العرب يشعرون بأنهم يستطيعون إتلاف المؤسسات اليهودية، ويقوم المستوطنون في البؤر الاستيطانية بمهاجمة الجنود بوحشية وانفلات، وقد أظهرت النتائج أن ٣١٪ فقط من مواطني الدولة يثقون ببعضهم بعضا، صحيح أن ٥٩٪ صرّحوا بانتمائهم للدولة، ولكن هذه النسبة كانت ٧٩٪ قبل أربع سنوات.. »[1].

فهل سرى إلى اليهود في فلسطين المحتلة هذه الأيام داء الفساد الإداري والرشاوى المتفشي في كثير من البلاد العربية، وهل سرى إليهم داء التفرق والاختلاف وكثرة الأهواء التي أبعدت الدول العربية عن أي وحدة أو اتحاد، أو أي تجمع مناطقي تكون له آثار إيجابية على شعوب تلك المناطق؟ إن كان هذا الداء سرى إلى اليهود، فهل هذه حسنة من حسنات الأنظمة العربية؟

(١) القدس العربي: ٤/ ١١/ ٢٠٠٧.

هل الإسلامية مضرة بالمسلمين؟

يذكر الشيخ رشيد رضا في (مناره) كيف كان موقف أحد الوزراء في العاصمة (إستانبول) عندما عرض عليه مشروعه لإقامة معهد ديني تربوي في القاهرة، كان ردّ الوزير: إننا نخشى أن لا يعجب هذا الدول الأوروبية. فردّ أحد كبار الموظفين: كيف نخاف من أن نقيم معهدًا لتعليم أبنائنا، وهم يقيمون مدارس تبشيرية على أرضنا وداخل دولتنا؟ ورجع الشيخ رشيد خالي الوفاض من أي دعم لمشروعه.

ويذكر الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على (حاضر العالم الإسلامي) أن الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي لم يتلق أي دعم أو مساعدة من البلاد العربية أثناء مقاومته للاحتلال الإسباني للريف المغربي، والسبب كما يقول أرسلان: «أن الدول العربية لا تريد أن ترفع راية (الإسلام) أمام الغرب؟!» ويتابع الأمير تحليله لهذا الموضوع: «كما زاد ذلك رواجًا ـ أي أن السياسة الإسلامية مضرة بالمسلمين ـ مراعاة جانب القبط؛ لأن إدماجهم الحقيقي في الكتلة الوطنية المصرية متوقف على نفض اليد من الجامعة الإسلامية»[1].

هل هذه سياسة صحيحة من الدول العربية، أم هي الهزيمة النفسية والحضارية، وهل من السياسة ألا يكون للإنسان هوية أو رأي أو موقف من القضايا الكبرى، وهل إدماج الأقلية في الكتلة الوطنية لا يتم إلا بالتنازل عن المبادئ والعقائد؟ هل يصح في العقول أن نتخلى عن (الإسلام) مراعاة لجانب

(١) حاضر العالم الإسلامي: ٢/ ١٩٢.

الأقلية؟ وأين إذن الديمقراطية والأكثرية التي ينادون بها، مع أن (الإسلامية) لا تعني عدم إدماج الجميع في وطن واحد يحمي الجميع، والعيش المشترك تحت ظل الحضارة الإسلام موجود منذ مئات السنين. لماذا يطلب منا التخلي عن الدين، بينما نرى الغربيين وسياسييهم يعتبرون الدين ركنًا أساسيًّا في بناء المجتمع. يقول المؤرخ (ول ديورانت): «لا يوجد مثال ذو دلالة في التاريخ قبل عصرنا لمجتمع ناجح في صيانة الحياة الأخلاقية دون معونة من الدين»[1].

وتقول وزيرة خارجية أمريكا السابقة: «لماذا لا نستطيع إبقاء الدين بعيدًا عن السياسة الخارجية؟ وجوابي هو: إننا لا نستطيع ولا ينبغي لنا ذلك، فالدين جزء كبير مما يحفز الناس ويشكل آراءهم في السلوك العادل الصحيح»[2].

إن الكنيسة الإنجليكانية في بريطانيا هي الكنيسة الرسمية، والملك هو رئيس الكنيسة، وفي هولندا يشترط في الملك أن يكون بروتستنتيًّا. العقلاء في العالم يبحثون عن الحلول لهذا النكد الذي تعيشه البشرية اليوم ربما لم تتح لهم الفرصة ليتعرفوا على تفاصيل الإسلام وشريعته، كما أنهم لم يجدوه مطبقًا على أرض الواقع.

إن العنصر الذي أوجد قوة العالم الإسلامي من قبل هو المفقود الآن، وهذا هو السبب في ضعف المسلمين وليس رفع شعار (الإسلامية) فالمجتمع الإسلامي بني منذ أوله على الدين، وفي الظروف الحالية كيف ينجو العالم الإسلامي من المخاطر المحدقة به إذا كان فاقد الزمام، ولا يتصرف تصرف المستقل بحضارته وثقافته.

(١) دروس التاريخ: ١٠١.

(٢) مادلين أولبرايت: الجبروت والجبار ٢٤٢.

الغلط الخفي

الذي لا يتابع ما يجري على الساحة الإقليمية والدولية ولا ينتبه للتحولات التي تقع والأمور التي تتغير، والذي يظن أن الأمور مستقرة على ما كان يعهد قبل سنة أو سنوات، أو حتى قبل أشهر فإنه سوف يقع في أغلاط كثيرة.

ما زال بعض الناس يعتبرون أمريكا هي كل شيء وأن ما تريده يحصل، وتسمعهم يقولون: أمريكا تريد هذا، ولكن المتتبع لما يجري سوف يلاحظ تخبط السياسة الأمريكية في العراق بعد الاحتلال ٢٠٠٣، وفي المنطقة العربية بشكل عام، وأنها تعكس حالة خداع النفس والارتجال والاستعجال في القرارات التي يتخلون عنها بسرعة، كما جابهت هذه السياسة معارضة قوية في الداخل من قبل الحزب الديمقراطي، وقد انكشفت أعمالها غير الإنسانية كالسجون السرية في أوروبا، وكيف بدأت روسيا تناكفها وتعترض على سياستها بلهجة صريحة: إذا فعلتم كذا فسنرد ونفعل المقابل، وكيف أقام الأوروبيون علاقات جيدة مع الصين والهند، فالعالم يتوسع والتكتلات الآسيوية لها أهميتها وقوتها وكذلك تكتلات أمريكا الجنوبية (فنزويلا، البرازيل، بوليفيا).

بعض الناس جمد على مقولات تتردد على علاقة أمريكا مع إيران، بينما في الواقع نرى المباحثات السرية والعلنية قائمة بينهم، وأوروبا لا تريد الحرب، وتريد حل المشاكل بالطرق الدبلوماسية، والمظاهرات الشبابية في طهران ليست سوى سماح للتعبير العاطفي والدعاية وذر الرماد في عيون المغفلين، أما (الملالي) فهم يخططون من وراء الستار.

لم تهتم أمريكا بمجلس الأمن ما بين (١٩٩١ – ٢٠٠٥م)، ولكن هذا المجلس أصدر قرارات، ونفّذ بعضها، مثل: تفكيك يوغسلافيا السابقة، واستقلال كوسوفا، والقرارات التي صدرت حول مشكلة لبنان نفذ أكثرها. وهناك جدل حول توسيع منظمة الأمم المتحدة وزيادة عدد الدول التي لها حق الفيتو. وفي داخل أمريكا تراجع بعض المحافظين الجدد عن مواقفهم السابقة، يقول (فوكوياما) صاحب كتاب نهاية التاريخ: «المحافظة الجديدة قد تطورت إلى شيء لا أستطيع بعد ذلك أن أسانده».

لا بد أن تطامن أمريكا ويطامن الغرب من غروره في أن يدير العالم من مركز واحد وفي إطار منظمة واحدة مثل حلف الأطلسي، وأمريكا لا تستطيع وحدها حل الصعوبات الدولية.

تنبيه العلاّمة ابن خلدون قديمًا إلى هذا الداء فقال: «ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم لا تدوم على وتيرة واحدة، وكما يكون ذلك في الأشخاص فكذلك يقع في الأقطار والدول»[1]، وقد ضرب ابن خلدون مثلاً على هذا الغلط الخفي وذلك عندما يظن القاضي في القرن التاسع الهجري أنه يستطيع أن يصل إلى منصب الإمارة أو الولاية كما وقع لبعض القضاة في القرون الأولى، ولم يتفطن إلى الفارق في تغير الأحوال وتغير منصب القضاة.

(١) المقدمة: ١/ ٣٢٠.

ومن الأمثلة ما كتبه عبد الرحمن بدوي في مذكراته، أن أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة كتب رسالة إلى كل من (هتلر) و(موسوليني) يدعوهما لاعتناق الإسلام على غرار الرسائل التي بعث بها النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، وصاغ الرسائل بالطريقة نفسها؟

ألم يقل ابن خلدون إنه داء خفي.

الشرائع والتمدن

يقال إن أعظم ما اشتمل عليه خلق الإنسان قبوله التمدن الذي أعظمه وضع الشرائع له، والتي هي في مصلحته في العاجل والآجل، ولكن كيف يكون حال هذا الإنسان عندما يعيش المجتمع والحكومة التي تهيمن على مقدراته دون شرائع، بل دون قوانين تسري على الجميع، مسئولين ومحكومين، ألا يدل ذلك على الانحطاط والانحلال وفشو الظلم وتسرب اليأس إلى الناس؟ وكيف إذا وصل الأمر إلى القضاء ونخر الفساد فيه، فهنا الطامة الكبرى، بل الفتنة الكبرى.

جاء في (نشوار المحاضرة) للتنوخي: «وكان أول ما انحلّ في نظام سياسة الملك ما شاهدناه في أيام بني العباس القضاء، فإن ابن الفرات (الوزير) وضع منه وأدخل قومًا بالضمانات[1] لا علم لهم، فما مضت سنوات حتى ابتدأت الوزراة تتضع ويتقلدها كل من ليس لها بأهل، وتلا سقوط الوزارة اتضاع الخلافة»[2]. تسلسل منطقي وصحيح، فعندما يفسد نظام القضاء سيأتي الخراب إلى باقي الدولة.

جاءت شريعة الإسلام لما فيه صلاح البشر، والفرق بينها وبين القانون هو أن الأخير هو مداواة دون تشخيص ومعالجة مع الإبقاء على جرثومة الفساد،

(١) أي أن القاضي يتسلم عمله لقاء مال يدفعه للحكومة، وهذا تخريب للقضاء، وابن الفرات هذا مدخول في عقيدته. وجاء في كتاب (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٢/ ١٤٢) أن ابن عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب أصبح قاضي بغداد في عام (٣٥٠هـ) على أن يؤدي مائتي ألف درهم كل سنة، وكان ذلك في دولة بني بويه.

(٢) طريف الخالدي: فكرة التاريخ ١٧٢.

فالشريعة من عند الله الخبير بمن خلق، والعلاج هو ترويض الإنسان بالإيمان والخلق الحسن قبل أن يصل الأمر إلى القضاء.

العمران في الأرض لا يتم دون شريعة جاء في كتابها: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤٠ – ٤١]، ومع ذلك فإن مجتمعات تدار بقانون يسري على الجميع خير من مجتمعات لا تدار بشريعة ولا قانون كما هو الواقع في بعض البلاد العربية، حيث لا نرى مجتمعات بل أشتات متفرقة من مجتمعات. والترتيب الاصطلاحي كما يعبر الإمام الطرطوشي خير من الفوضى حين يعيش الناس دون شريعة أو قانون، يقول : «إن درهمًا يؤخذ من الرعية على وجه الإهمال والخرق ـ وإن كان عدلاً ـ أفسد لقلوبهم من عشرة تؤخذ منهم بسياسة على زمام معروف ورسم مألوف، وإن كان جورًا، فلا يقوم السلطان (الحكم) لأهل الإيمان ولا لأهل الكفر إلا بإقامة العدل النبوي أو ما يشبه العدل من الترتيب الاصطلاحي»[1].

إن عشرة دراهم تؤخذ من الجميع بقوانين معلومة ودون محاباة تريح الناس ولا يشعرون بالغبن، وعندما يتوفر هذا الذي يطلبه الطرطوشي من عدل وقضاء مستقل، هنا يمكن أن نقول أن عندنا (دولة)؛ لأنها هي المؤشر على التمدن.

إن الأرض والنجوم والحيوانات محكومة بقوانين كونية، ألا يحتاج الإنسان إلى شريعة تضبط تصرفاته وتساعد على تقدمه وتمدنه؟

(١) سراج الملوك ١٧٤، تحقيق جعفر البيّاتي.

أوهام السياسة والإعلام

وهم كبير يسعى جاهدًا لأن يقر في أذهاننا، أننا نتحرك نحو كون واحد ومجتمع مدني عالمي يتخطى المصالح الوطنية والخصوصيات الثقافية لكل أمة، ويردد البعض مقولة: «لقد أصبح العالم قرية واحدة»، وكأنها من البدهيات.

يقولون: لا مفر من العولمة، ولا نستطيع العيش بمفردنا، وماذا نصنع وهذه العولمة الاقتصادية والثقافية تدخل كل بلد، وها هي الأمم المتحدة تعقد المؤتمرات لمعالجة المشاكل العالمية.

لا شك أن هناك سهولة وسرعة في الاتصالات والمواصلات قربت بين أرجاء الكرة الأرضية، ولكن هذا لا يعني أن العالم يتوحد مع وجود هذا التفاوت والاختلاف بين الثقافات والعقائد، ومع وجود هذا التفاوت بين مناطق الغنى والرفاهية ومناطق الفقر والعِوَز. ومن سنن الله في البشر سنة الصراع، وذلك للاختلاف والتضاد الواقع بين البشر، وهذا الصراع لا يتوقف، ولذلك فالعالم لا يتوحد. وهذه أمريكا التي قام مفكروها بتصدير العولمة وهم الذي يتكلمون عن (الخطر الرهيب) الذي يهدد الحضارة الغربية، ويمارسون صناعة التصعيد ضد ما يسمونه (الأصولية) الإسلامية، وأن العالم مقبل على حرب عالمية ثالثة[1]، وساعد على هذه المبالغات والأوهام التقنيات الحديثة المذهلة والمتقدمة في الإعلام الموجه،

(١) كما يردد (نيوت غينغريتش) و(نورمان بودهوريتز).

حين يسهم في سلب الثقافة جوهرها، وينمي السطحية ويزيل الحواجز والتميز، ويدعو إلى قبول ما يصح وما لا يصح، ويدعو إلى الخضوع للرأي الآخر ولو كان تافهًا مرذولاً. هذا الإعلام الذي يجمع الناس على أحكام مبتسرة متسرعة، ويمارس التكرار الممل حتى يتم التسليم والاستسلام.

يرددون في الإعلام العربي مقولة: «وإن كانت الطائفة الفلانية هي الأكثرية ولكن...» وهذا كلام بعيد جدًّا عن التحقيق والتدقيق العلمي المحايد. ورغم اتساع المخاطر بسبب تغير البيئة الطبيعية، ولكن من يسمع الإعلام يظن أن كارثة ستحل بعد قليل.

الأوهام تستهوي الأفئدة، أما الحقائق الباردة فقد لا تعجب بعض الناس، أليس من العجز أن نردد: ماذا نصنع، لا مفر من المؤثرات العالمية؟!

العالم بحاجة إلى رجال

«هناك دلائل متزايدة حول قيام الولايات المتحدة بشحن أشخاص من الدول التي لا تمارس التعذيب إلى دول تمارسه من أجل تعذيبهم والحصول على معلومات.

يبدو لي أننا فقدنا كل مفاهيم الشرعية في العلاقات الدولية، هناك خطر حقيقي إذا استمررنا في الانزلاق نحو مساندة نظام عالمي لا يقوم إلاَّ على قوة متفوقة وحيدة»[1].

هذه كلمات لسفير بريطانيا لدى أوزبكستان، وقد استقال من منصبه وكتب عن (جمهوريات التعذيب)، ويعلق زميله السفير الألماني معتذرًا عن سكوته مع اعترافه بأن هناك انتهاكا لحقوق الإنسان في أوزبكستان، يقول: «نعلم أن انتهاكات حقوق الإنسان هنا بالغة السوء، ولكننا نعرف أيضًا أن الرئيس (كاريموف) هو حليف مقرب جدًّا من الولايات المتحدة، ولهذا لدينا اتفاق على ألا نذكره.. ».

كان على سفير بريطانيا أن يعترض أيضًا على هذا الانحدار الأخلاقي في سبيل الفوز في الانتخابات، فوزير خارجية بريطانيا السابق يهاجم خمار المرأة المسلمة كي يكسب أصوات أهل منطقته، وحكومة كندا تسجن العشرات من الشباب المسلم كي تقول لشعبها إننا نحميكم ونعزز الأمن لكم، ويمكن لأمريكا أن تهدم بلدًا في سبيل فوز أحد الحزبين بالانتخابات القادمة؟!

(١) كريج موري: جمهوريات التعذيب.. وجهات نظر ١٨.

يقول الفيلسوف البريطاني (برتراندراسل) منتقدًا وساخرًا من هذه الظاهرة في الغرب: «لا أعتقد أن أمريكا ستساهم في الدعاية لتحديد النسل في إفريقيا، لأن الحزبين (الجمهوري والديمقراطي) سيفقدان أصوات الكاثوليك في ولاية نيويورك، ومن الواضح أن هذا سيكون كارثة أعظم من إبادة الجنس البشري بحرب نووية»[1]!!

هل هذه هي الديمقراطية.. أم أنه انحطاط أخلاقي وانحطاط في السياسة.

هل مشكلة العالم اليوم أنه يفتقد الرجال الذين يملكون أفكارًا واضحة وجرأة في اتخاذ القرار بل نخشى أن يكون هذا العالم قد افتقد الإنسانية رغم كثرة الحديث عنها، ورغم كثرة منظمات حقوق الإنسان.

ونخشى أن لا يكون هناك بين رجال السياسة اليوم من يحافظ على العهد والوعد، أو من يهتم بمصالح بلده بقدر اهتمامه بمصالح الشركات التي تهيمن على مقدرات بلده.

نريد صوتًا يقول الحق، ويعترف بالحق، ويصارح شعبه، ولا نريد أن تهدر القيم والأخلاق على مذبح الأنانية والجشع، وكأننا نعيش في غابة تعيث فيها الوحوش فسادًا.

(١) برتراندراسل: مختارات من أفضل ما كتب، نشر المجلس الأعلى للثقافة ـ مصر ـ ضمن سلسلة المشروع القومي للترجمة برقم (٦٤١)، ص١٠٨ (بتصرف).

اليهود والصهيونية والمؤامرة العالمية

زارني أحد الإخوة المهتمين بأحوال المسلمين وما يدبر لهم من كيد ومحاولات للهيمنة الثقافية والسياسية، وبعد أن اطمأن به المجلس قدّم لي كتابًا بعنوان (العالم لعبة إسرائيل) فتبسمت، وقلت له: هذا كتاب قديم، إنه في حقبة الستينات والسبعينات من القرن العشرين، وقد انتشرت وذاعت مثل هذه الكتب في تلك الفترة والتي توحي للقارئ أن الصهيونية والماسونية تمسكان برقاب العالم من جميع النواحي: الإعلامية والسياسية والمالية وهي مخططات شيطانية لتدمير العالم أخلاقيًّا واستقرارًا سياسيًّا، وقلت للأخ: لا أميل إلى أمثال هذه الكتب التي تضخم وتهول من قوة اليهود أو الصهيونية العالمية.

فسأل مستغربًا: ولماذا؟

قلت: إن الذي يقرأها سيصاب بالإحباط إن لم يكن بالرعب، وكأن هذه الكتب تريد أن تشل القدرة عند المسلم على التفكير والإرادة، ولكي يستسلم للواقع، وهذا لا يعني أن ليس هناك تآمر ومتآمرون وتخطيط للسيطرة والنهب، والقرآن الكريم نبه المسلمين إلى هذه النفسية الملتوية لليهود، وإيقادهم للحروب ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] وأدان مخططاتهم وأساليبهم الميكافيلية، هم يوقدون للحروب حتى يستفيدوا من عواقبها ونتائجها لمصلحتهم الخاصة، مثل القروض الربويّة، كما فعلوا مع بريطانيا في الحرب الكونية الأولى، وكان من ثمرات هذه القروض وعد وزير خارجية بريطانيا (بلفور) لليهود بإقامة وطن لهم في فلسطين، وأما سيطرة اليهود على كثير من وسائل الإعلام في الغرب

فهذا صحيح لا شك فيه ولكن هذا شيء يتنافس فيه الناس، فلماذا لا يتنبه الآخرون لخطورة الإعلام مثلاً. الشيء الذي لا يستطيعه المسلمون هو استخدام الوسائل المنحطة في سبيل الوصول للغايات كما يفعل اليهود، ولكن أليس الباطل زهوقًا أمام قوة الحق؟

إن تضخيم دور الصهيونية أو اليهود في السيطرة[1] على كثير من الدول أو المؤسسات، ربما يرضي اليهود أنفسهم ليخوفوا أعداءهم، فهل نروج نحن لهذه الكتب؟ وأما الحديث عن التفرقة بين اليهودية والصهيونية الذي يتردد كثيرًا في وسائل الإعلام وعند بعض الكتاب والمحللين السياسيين فهذا يحمل أيضًا قدرًا من المبالغة، فأكثرية اليهود في العالم يؤيدون الحركة الصهيونية التي هي حركة يهودية سياسية قومية، والقلة منهم الذين يرفضون أساليب الصهيونية. وعندما تحدث القرآن الكريم عن أساليب اليهود الملتوية، كالحديث عن عنادهم وقساوة قلوبهم وقتلهم الأنبياء، إنما كان يتحدث عن اليهود وليس عن الصهيونية. فهي صفات متأصلة فيهم، بل إن القرآن الكريم خاطب اليهود الموجودين زمن البعثة النبوية ويهود المدينة جزء منهم على أنهم استمرار للذين قبلهم، وذكّرهم بما فعل أجدادهم زمن موسى؛ لأن طريقتهم لم تتغير قديمًا وحديثًا، فكان الخطاب واحدًا.

(١) وقد صدر أخيرًا كتاب «اللوبي الإسرائيلي» في أمريكا، وذكر أن الناس يظنون أن اليهود يقدرون على أمور كثيرة وكبيرة، ثم يعلق ويقول أن هذا غير صحيح.

عسكرة الدولة
هل هو طريق للقوة أو فرصة للنجاح

حين يتحدث بعض الكتاب عن فترة النهضة في العصر الحديث، يمتدحون المشروع التحديثي الذي قام به محمد علي باشا في مصر، وذلك عندما أرسل البعثات العلمية إلى أوروبا وحاول نقل التقنية الغربية الحديثة، والمشكلة التي يغفل عنها هؤلاء الكُتّاب هي أن هذا المشروع كان مسخّرًا لخدمة مؤسسة واحدة هي مؤسسة الجيش، كان مسخَّرًا لعسكرة الدولة، ولم يكن مشروعًا متكاملاً لنهضة علمية زراعية صناعية كما حصل في اليابان، فضلاً عن أن يكون مشروعًا حضاريًّا إسلاميًّا. وحتَّى المدارس التي أنشأها كانت لفئة معينة من الطلبة، كان همه الأول أن يكون قويًّا يستطيع السيطرة على البلدان المجاورة.

جاء هذا التحديث على حساب المجتمع المصري، فقد فرض (الباشا) نظام السخرة، وقام بنهب الأموال من الفلاحين، يتحدث المؤرخ الجبرتي عن عودة الباشا من رحلة إلى جنوب مصر، فيقول: «وبعد وصول الباشا بثلاثة أيام، وصلت طوائف العسكر ومعهم المنهوبات من الغلال والأغنام والفحم والحطب وأنواع التمر وغير ذلك من أخشاب الدور وأبوابها»[1]، والباشا ينهب الغلال ليبيعها في الإسكندرية إلى الإفرنج؛ لأن في طبعه الحسد والشره والتطلع لما في أيدي الناس كما يصفه الجبرتي.

نعم، شيّد الباشا المصانع، وفتح الترع، ولكنه احتكر الصناعة، فكان يجمع

(١) عجائب الآثار: ٣/ ٣١٤.

كل ما يقوم به أصحاب المصانع الصغيرة ويدفع لهم الثمن الذي يقدره هو، وسوف تقلده بعدئذ الحكومات العسكرية التي استولت على زمام الأمور في البلاد العربية، وتنفق أموال الأمة على الجيش الذي لم يقاتل عدوًّا، ولم يحرر أرضًا، وسوف يسخر هؤلاء الحكام كل إمكانيات بلادهم المالية والعلمية للصناعة العسكرية.

أثبت جيش محمد علي كفاءة عالية، ولكن ليس ضد الأعداء، بل ضد الدول المجاورة، وذلك عندما طلب منه ضرب الدولة السعودية الأولى، وضرب الدعوة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد. كما أثبت هذا الجيش كفاءة عالية حين احتل بلاد الشام بقيادة ابنه إبراهيم باشا، حيث قام الابن بدور الأب في فرض التغريب على المجتمع المسلم في بلاد الشام، قال عنه الشيخ عبد الرزاق البيطار: «غشوم ظالم، مجبول على الفساد والغلظة، قهر الناس، وفرض على كل فرد من البالغين مالاً يؤخذ منه»[1].

إن الذين يظنون أن التحديث إنما يكون بالتقدم المادي يجعلون من محمد علي بطلاً، وأنه أحيا مصر بعد مواتها «ولكن ما بال هذه الحياة لم تصدر عنها آثار في الأخلاق والأعمال النافعة ووحدة الأمة واستقلال الحكومة»[2]. ورغم صلة محمد علي بأوروبا، ورغم فرضه للتغريب على مجتمع مسلم، إلا أن أوروبا لم تسمح لهذه القوة الناشئة أن تهزم الدولة العثمانية أو تضعفها؛ لأن أوروبا هي التي تريد إضعاف الدولة العثمانية واقتسام الغنيمة، ولذلك فرضت على محمد علي باشا إنهاء الصناعة العسكرية، وإغلاق المصانع، فربما يأتي حاكم صالح يستخدمها ضد العدو الحقيقي. واستجاب الباشا لهذه المطالب مقابل أن يبقى الحكم في مصر له ولذريته!!

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: ١/ ١٥.

(٢) رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السابع.

أوهام القوة

إن أسوأ ما يصاب به الإنسان أو تصاب به بعض المجتمعات والدول هو داء الغرور، حيث يتم التعامل مع الآخرين بالاحتقار والانتفاش، وتتكاثر الأوهام على من يصاب بهذا الداء فيظن المستحيل سهلاً وكأنه سيقع غدًا.

بوش (الابن) جاء إلى البيت الأبيض حين خلت الساحة من أقطاب آخرين، جاء بمشروع هو مزيج من (المسيحية والصهيونية) ومن عقلية (المحافظين الجدد) الذين يتوهمون أن باستطاعتهم تغيير العالم من خلال نظرية السوق الاقتصادية، ومن خلال ديمقراطية يطرحونها كشعار غير قابل للتنفيذ.

ولذلك وقعوا في تناقضٍ صارخ بين هذا الشعار وبين ما تمارسه أمريكا في العراق وأفغانستان، فالشعب العراقي انتقل من ظلم يحمل العصا إلى ظلم يحمل الدساتير والمجالس المعينة.

وقد ذهبت الأحلام ببوش ومن حوله إلى حد التفرد وقيام إمبراطورية تتحكم بشؤون العالم، ولكن الواقع صدم هذه الأوهام حين فشل في العراق فشلاً ذريعًا، وكذلك في أفغانستان، وفي أمريكا الجنوبية بدأت بعض الدول تنفلت من القبضة الأمريكية بل تناهض سياسة بوش ورفاقه. والتحدي الأكبر هو أمريكا في الداخل حين يقول مستشار الأمن القومي سابقًا برجنسكي: «قد لا يكون انكشاف أمريكا في التحدي الملموس القادم من خصومها، بل التهديد غير الملموس الذي

تفرضه ثقافتها التي شرعت تضعف وتفسد وتقسم أمريكا داخليا»[1] ، ويتابع برجنسكي محللاً نظرة المسلم إلى أمريكا «على العالم أن يتفهم أن المليار مسلم لن يتأثروا بغرب يرونه مبشرًا بقيم استهلاكية وفضائل لا أخلاقية، وبركات الإلحاد، فرسالة الغرب خصوصًا أمريكا مرفوضةٌ لدى كثير من المسلمين»[2].

التشابه كبير بين بوش ورئيس إيران محمود أحمدي نجاد فكلاهما مهووس بالأحلام الدينية، بل بالخرافات الدينية، وكلاهما يعتقد أنه صاحب رسالة؟!! فالأول يجب أن يساعد إسرائيل استعجالاً لظهور المسيح، والثاني يستعجل خروج المهدي (مهديهم الذي لن يخرج أبدًا من السرداب) وإذا خرج بزعمهم فمهمته هي قتل أهل السنة والحكم بشريعة داود؟!

نجاد مغرور أيضًا بتفرد إيران بعد ضياع العراق وإسقاطها بأيدي الاحتلال وبمساعدة إيران. ويظن أنه يستطيع الهيمنة على المنطقة من خلال السيطرة على العراق، ومن خلال نشر التشيع وإنفاق الملايين على الدعاية وبناء الحوزات وإطماع ذوي النفوس الضعيفة. إنه السعي الدائب لإقامة إمبراطورية فارسية تعيد مجد (قورش) و(دارا)، وأما ما يبدو في ظاهر الأمر أن نجاد يريد إلغاء إسرائيل فيجب على الذين ينخدعون بهذا أن يقرأوا تاريخ العلاقات الإيرانية – الإسرائيلية المميزة بالصفقات من وراء الكواليس وأن يدققوا في استخدام نجاد للمعاناة الفلسطينية سلعة في طموحات إيران التوسعية.

(١) الفوضى١٢٧.
(٢) الفوضى١٨٢.

ليس غريبًا على أمثال هؤلاء أن يجمح بهم الخيال وتوسوس لهم نفوسهم بأمور بعيدة عن الواقع، وقد يصلون إلى قناعة داخلية بأنهم مأمورون من الله برسالة مثلاً معينة؟! وينقلب الأمر إلى هلوسة نفسية.

يجب أن يعلم هؤلاء أن العجرفة والغرور مؤشران على بداية التراجع وانكشاف أمرهم داخل بلادهم قبل الخارج.

اطلبوا العلم ولوفي الصين
«الاتجاه شرقًا نحو توازن العلاقات الدولية».

اتسمت العلاقات التاريخية بين المسلمين والصين بالهدوء والتبادل الثقافي والتجاري، بدأت هذه العلاقات مبكرًا في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك وصل قائد جيوش المسلمين في المشرق قتيبة بن مسلم الباهلي، إلى حدود الصين وأرسل وفدًا إلى ملكها وكان حوارًا إيجابيًا، وقبل الملك بشروط قتيبة، ولم يقع قتال. وقد وصل إلى الصين رحالة عرب كثيرون ووصفوا أرضها وطبيعة سكانها.

وبسبب هذه العلاقات الجيدة انتقلت صناعة الورق من الصين إلى العالم الإسلامي، فأحدث ذلك ثورة في عالم نسخ الكتاب ونشره، وفي العالم الإسلامي انتقلت هذه الصناعة إلى أوروبا. كما اهتم الصينيون بنقل معارف المسلمين في الطب وعلم الفلك.

فإذا انتقلنا إلى عالم اليوم لنبحث عن طبيعة العلاقات بين المسلمين وهذه الدولة التي يزيد عدد سكانها عن مليار نسمة، والتي تسارع الخطا نحو القوة والتقدم الصناعي، وأصبحت دولة كبرى في الميزان السياسي والاقتصادي، وهذا البحث ضروري؛ لأن الاستقطاب السياسي الذي أحدثه الغرب أخيرًا، والاتجاه المتسارع نحو عولمة الاقتصاد والثقافة، ونحو هيمنة غربية تملي المواقف وتصدر السلعة الإعلامية مبطنة بما شاءت من قيم وسلوك.. هذا الاستقطاب أحدث خللا في

العلاقات الدولية واضطرابًا، ألا يدعونا هذا إلى بناء علاقات متينة مع هذه القوة التي يتعاظم دورها وحضورها السياسي؟

والأمة الإسلامية بما تملك من طاقات وحضارة عريقة، يمكنها أن تكون شريكًا إيجابيًا لهذه القوة الصاعدة.

وليتمكن الجميع من الوقوف في وجه الحضارة الغربية العاتية التي يرى مثقفوها أن التاريخ انتهى عندهم، وما على الآخرين إلا أن يستسلموا ويسلموا مفاتيح القلعة، وإذا كان الاتحاد السوفيتي - غير مأسوف عليه - كان عامل توازن سياسي، فلماذا لا يكون الشرق الآن هو عامل التوازن، وإذا كنا نتحدث عن الصين فالمقصود أيضًا دول المشرق الإسلامية كماليزيا وإندونيسيا. بعض الناس ما يزال يحمل عقدة (لندن، باريس، واشنطن) وأذكر أنني سألت أحد أصحاب المواقع الإسلامية على (الإنترنت): ما هي مشاريعكم المستقبلية؟ قال: نخطط لترجمة إنتاجنا الثقافي إلى اللغة الإنكليزية والفرنسية، ونفكر في الإسبانية أيضًا. قلت له: لماذا لا تفكرون بالأوردية والتركية والماليزية...هنا يوجد مئات الملايين من المسلمين، فهل يهمل هؤلاء لمصلحة اللغة الإسبانية؟

إن دورنا في الشرق الإسلامي سيكون له نتائج كبيرة بإذن الله، خاصةً إنْ نحن نشرنا اللغة العربية وحشدنا هذه الدول لتكرس التوازن في العلاقات الدولية، وحتى لا يبقى القطب الواحد يظن أنه يتحكم في سياسة العالم.

السياسة في سورية في مذكرات الأمير عادل أرسلان

لا نستطيع فهم اللحظة الحاضرة دون الرجوع إلى اللحظة الماضية؛ لنرى كيف تراكمت الأخطاء، وكيف وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه الآن في سورية.

في مذكرات الأمير عادل أرسلان لفتات ذكية وقيمة عن أحوال السياسة في سورية في الثلاثينيات والأربعينيات وما بعده من القرن الماضي، والأمير عادل أرسلان خبير في أحوال بلاد الشام - بل والبلاد العربية بشكل عام - فقد كان نائبًا عن سورية في مجلس المبعوثين في إستانبول، وهو ممن وقف في وجه الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان، وقاتل في سبيل ذلك، وله جولات في أوروبا وهو مطلع على خفايا الاستعمار، وهو لا يفتأ يذكر ضعف السياسيين السوريين وزراء ونوابًا، وعدم وجود الإرادة القوية لديهم لاتخاذ القرارات الصعبة لمصلحة البلاد. كما يصف أكثر السياسيين بالانتهازية والاتصال مع بعض الدول العربية للحصول على المال.

يقول واصفًا حال السياسيين في سورية: «وهناك أيضًا تذبذب ظاهر، فمن أنصار الحكومة رجال يمالئون المعارضة سرًا؛ ليكون لهم مناصب إذا تولت المعارضة الحكم، فمن كل جهة تظهر لي العلل الأخلاقية في هذه الأمة». ويصف الحال في يوميات ١٩٣٩م: «في سورية فساد كامن في النفوس، يظهر في النوادي وعلى صفحات الجرائد كلما اشتد فيها أمر الأجنبي، وهذا دليل على مرض في النفوس وداء قديم في الأخلاق، معارضةٌ هي جنون ولؤم، وكتلة وطنية سلمت

مقاليد البلاد إلى نفر أوصلوها إلى ما لا يشتهيه لها إلا كل عدو، والسياسة في نظر بعض الزعماء هي المناكفة والمكايدة للآخرين، وليست لمصلحة الوطن». ويقول عن الزعيم عبد الرحمن الشهبندر: «الدكتور عبد الرحمن الشهبندر هو الذي يسميه ألوف من الدمشقيين زعيم سورية الأوحد كان في محاربته استقلال سورية نكاية بجميل مردم في درجة الكاردينال (بتوني) لؤمًا،وإن لم يكن في درجته مكانة في نظر الفرنسيين، فالمشكلة إذن في الأمة أيضًا بسبب غبائها السياسي وتعلقها برموز لا تسمن ولا تغني من جوع...رموز من عائلات أرستقراطية رأسمالية درس بعضهم في الغرب وحصلوا على الشهادات العالية، ودخلوا غمار السياسة الانتهازية».

والسياسة السورية استمرت فترة طويلة مبنية على التوازن بين دمشق وحلب، وليست على المصلحة العليا للبلاد، يقول عن أحداث ١٩٤٣م: « كُلف سعد الله الجابري بتأليف الوزارة السورية لا أدري هل كان اختياره لشخصه أو لكونه حلبيًا، إذ رئيس الجمهورية (القوتلي) دمشقي؟!»[١]...

(١) مذكرات الأمير عادل أرسلان: ١/ ٤١٠.

عبد أمير المؤمنين[1]

«يروى أن جعفر البرمكي تعلقت به شهادة فكتبها إلى القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، فكتب عليها علامة الرد، فشق ذلك على الوزير، وقام من مجلسه لدار الرشيد، وحكى له الحال، فاغتاظ وأمر بإحضار القاضي، وقال له: بأي قادح رددت شهادة وزيري؟ فقال له القاضي: سمعته مرارًا يقول: «أنا عبد أمير المؤمنين»، فإن كان صادقًا فالعبد مادام في الرق لا تقبل شهادته لاستغراق أوقاته في خدمة سيده، وإن كان كاذبًا فهو مجروح بالكذب... ».

تذكرني هذه الحكاية بما يقع الآن، فإنك عندما تعاتب موظفًا أو شرطيًا أوعسكريًا في بلادنا، على معاملته وأساليبه غير الإنسانية، وعلى مضايقته للناس، يجيبك على الفور: ماذا أعمل؟ نحن عبيد الدولة! هذا إن كان فيه بقية من الشعور بالخجل من أفعاله. هل يعقل هذا الموظف معنى هذه العبارة، وهل هو مقتنع بها؟ أم إن الضرورات المعيشية ألجأته إلى هذا الخضوع؟

الغالب المشاهد أن هذا الموظف قد قبل هذا الواقع قبولاً تامًا، ويعتبر نفسه عبدًا للدولة فعلاً، ولكن كيف استطاعت الدولة تربية هذا الكم من العبيد، ومن أعطاها الحق في أن تستعبد الناس، ويكون لها هذا الهيلمان والصولجان، كيف نشأت هذه الظواهر والمجتمع الإسلامي الوحيد الذي يعيش فيه الإنسان حريته

(١) أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان/ ٣٠.

الحقيقية، لماذا تتضخم الدولة لتسحق الفرد؟ والأصل أن تتقلص الدولة في حدود معينة لتخدم المجتمع.

لا شك أن طول الطغيان والاستبداد، وطول أمد الأزمات الاقتصادية قد أوجد هذا الصنف من الناس (العبيد) والقاعدة عند الطغاة أن يلحقوا أكبر الضرر وأشد الظلم بشعوبهم حتى لا تقدر على المقاومة ودفع الظلم. ومن طبائع الطاغية إذا أنت أسلمت أمرك له أن لا يرضى منك بالطاعة فقط، بل يصر على أن تكون طاعة وشعورًا بالهوان. والشعوب على استعداد لأن تنسى الإساءة بعد أن أدت مفعولها.

إن من أشد الأمراض فتكًا بالأمة هو اعتقاد قدسية الدولة، وأن الشعب أرقاء لها، بينما الشرع الإسلامي يبالغ في حقوق الفرد، فمن قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا، وإذا كانت الحكومات قد نجحت نجاحًا مؤقتًا في إعادة تشكيل عقلية المواطن وسلبه حريته وإرادته وكرامته. فإن هذا لا يدوم، ولن يقف في وجه هذا المرض إلا الرجال الذين لا يطأطئون رؤوسهم إلا لله سبحانه وتعالى، ومن أكبر همهم محاربة الظلم والفساد.

أساطير سياسية

في البلاد التي تئن تحت الحكم الفردي تنتشر أسطورة (الحاكم الذي لا يعلم) فهو رجل يحب الخير لبلده وهو رجل رحيم، ولكن العيب كله في الرجال المحيطين به، إنهم مجموعة من الأشرار يخفون عن الحاكم كل شيء، ويصورون له الأحوال دائما بصورة وردية، وقد يروج هذه الصورة النظام نفسه أو المتعاطفون معه، مع أن الحاكم يسجن بلا حساب، ويعتقل بلا دليل، ويقمع كل معارض.

كيف تنطلي هذه الأمور على بعض الناس، وما تفسير هذه المعضلة؟ هذا النمط من الناس لا يفكر ولا يستعمل عقله، وإنما يلجا إلى الأسطورة، حتى تبقى صورة الحاكم في مخيلته ولا شعوره هي المثال الذي يريده ويتمناه، ولا يحب سماع شيء يعارض هذا أو يشوه هذه الصورة، وحتى يبقى في نوع من التخدير العاطفي. وربما حُوِّرت هذه الأسطورة إلى أخرى شبيهة بها: وهي أن الحاكم يريد الخير ولكن أعوانه يفرضون عليه إجراءات ظالمة لا يكون راضيًا عنها، وهو مضطر إلى توزيع القوى بين أعوانه، فإذا أساء أحدهم التصرف فالحاكم ليس مسؤولاً عنه بل هو مضطر للمضي قدمًا في لعبة التوازن لسلامة النظام.

وهناك أسطورة ثالثة: وهي أن الحاكم يعرف كل شيء وهو المتسلط على كل شيء، ولا يسمح للذين من دونه بأي إصلاح، فالأعوان هنا عاجزون حتى لو كانوا من الفضلاء، والحاكم هنا يتدخل في كل التفصيلات والجزئيات.

إن وقوع الجماهير في هذه الأوهام وفي فخ هذا الخداع إنما يدل على البعد كل

البعد عن أي وعي سياسي أو أي وعي بحقوق الفرد وواجباته، وكيف تحفظ البلاد من الاستبداد وربما ألفوا هذه الحالة وأنها حالة عادية.

يقول الشيخ الإبراهيمي معلقًا على هذا النمط من الشعوب والحكام: «والغالب على الشعوب البدائية في السياسة أن تكون على بقية من وثنية، أصنامها الشخصيات، فيكون إحساسها تابعًا لإحساسهم، وحركاتها منوطة بتحريكهم ولو إلى الضياع والشر، وهذه هي الحاله السائدة في شرقنا، وقد تفطن الغربيون لهذه النقيصة فينا، بل إلى هذه الثغرة في نفوسنا، فأصبحوا ينصبون لنا التماثيل من الرجال ويحكموننا بها»[1].

إن الحاكم هو الذي يختار معاونيه ويرتاح لهم ولأسلوبهم وإن وجود حاكم صالح تحيط به ثلة أشرار مجرد خيال ووهم؛ لأن الحاكم يغض الطرف ما دام هؤلاء المساعدون ينفذون ما يريد، ولو شاء لفتح الأبواب والنوافذ، وسمع ورأى وعلم الحقيقة وما يحدث في دولته، وعندما طلب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور من عمرو بن عبيد أن يأتي وتلاميذه ليساعدوه في الحكم وإصلاح الأمور، قال له عمرو: أبعد من حولك الواقفين ببابك حتى نعلم صدقك في الإصلاح.

بعض الحركات الإسلامية وقعت في فخ الأساطير السياسية حين توهمت أن دولة هي عدو للإسلام والمسلمين، تعتقل الآلاف من الدعاة، توهمت أنها تقف في وجه أمريكا والعدو الصهيوني، مع أن لهذه الدولة علاقات سرية وعلانية مع هؤلاء الأعداء. مع أن هذه الدولة التي يتبجح أحد قادة حزبها السابقين (مالك

(١) البشير الإبراهيمي: الآثار الكاملة٥/ ١٣١.

الأمين) بأنهم نجحوا في جر عبد الناصر إلى معركة خاسرة (١٩٦٧م) حتى يفقد زعامته في العالم العربي[١]، ما الذي يمنع أن تنقلب هذه الدولة ما بين ليلة وضحاها على هذا الفصيل الإسلامي؟ وما المانع أن تستفيد منهم لمصلحتها الخاصة وعلى حساب قضيتهم؟!

وفريق آخر من الفصائل الإسلامية هو في مواجهة مع حكومته، ولكن الأوهام تذهب (كذلك الجهل بالسياسة الشرعية)؛ لأن يؤيد ويتعاطف مع نظام شعوبي باطني حاقد، لا يقل خطره على شعوب المنطقة العربية من حيث الدمار العقدي والسياسي عن مخططات الغرب لاستلاب الهوية العربية الإسلامية واستلاب المنطقة حضاريا وسياسيا واقتصاديا؟ هل السياسة هي مناكفة الآخر والتصرف كالأولاد الصغار، أم يجب أن يكون تحكمها المبادئ ومصلحة الأمة والنظر إلى المستقبل والآثار المترتبة على هيمنة التيار الشعوبي الباطني - لاسمح الله- لا ندري ما هذه السياسة، وعلى أي أساس تقوم، إن أمثال هذه التصرفات تستعصي على الأفهام أحيانًا!!

(١) شوقي ملاسي: القدس العربي١٣/ ٥/ ١٩٩٧.

فقدنا العز حين فقدنا القلعة!

جاء في معجم البلدان أن قلعة (جعبر) كانت على الفرات قريبة من بلدة الرقة، وقد تملكها مالك بن علي العقيلي، ورأى السلطان نور الدين محمود أنها قلعة مهمة لمصلحة الدولة، فاشتراها من صاحبها وعوضه عنها أرضًا كبيرة وعشرين ألف دينار، وعندما سئل صاحبها السابق (العقيلي) أيهما أحب إليك؛ القلعة أم ما أنت فيه الآن؟ فقال: أما العز فقد فقدناه بمفارقة القلعة.

إذا كان العقيلي قد فقد العز بفقد قلعة واحدة؛ فقد فقدنا قلاعًا كثيرة، وآخرها هذا الاختراق الإيراني الصفوي لبعض صفوف أهل السنة، فظنوا لغفلة منهم أو غباء سياسي أن إيران ومن يمشي في ركابها هم المدافعون عن المنطقة والمواجهون لأمريكا وإسرائيل، وهذه مهزلة يضحك منها العقلاء؛ لأنهم يعرفون ماذا يجري في الخفاء من علاقات سرية وتحالفات مع الشيطان الأكبر، وليقرأ المغرورون كتاب (تحالف الغدر، والعلاقات السرية بين إيران وأمريكا وإسرائيل).

ألم يسمع هؤلاء نبأ ما يحدث في بلد عربي من محاولات لتشييع أبنائه وبناء الحوزات، وفي الوقت نفسه التضييق على المدارس الشرعية لأهل السنة التي هي تابعة لجمعيات أهلية خيرية، وقد صدر أخيرًا قرار بإلحاقها بوزارة الأوقاف ومنع أي تبرع لها، ومنع الدراسة في هذه المدارس لغير المواطن (وقد استفاد منها سابقًا كثير من أبناء الشعوب الإسلامية) كما أبعد المشايخ عن أي مجلس إدارة لأي جمعية أهلية.

إن ما تقوم به الجهات المُخترقة من أبناء السنة ومنهم دعاة ومثقفون هو تضليل وخيانة للشعوب العربية التي تنتظر منهم أن يكونوا منارةً هاديةً لها، وخاصةً في الأزمات والمحن، وأن يحموها من التشوش الفكري الذي يمارسه الإعلام المناوئ لعقيدة الأمة وثقافتها.

لقد تعرضت هذه الشعوب لكل أنواع الاستعمار، وكان آخرها استعمار الإلغاء حين قررت أمريكا إلغاء العراق من المشرق العربي، كما تعرضت لويلات الاستبداد ومكر الليل والنهار من المبشرين والمستشرقين الذين حاولوا محو مقوماتها بالتدرج والخفاء، والذين يحاربون الإيمان بالإلحاد، والوحدة بإثارة النعرات العنصرية والدينية، ويحاربون العربية بإحياء اللجهات العامية. ومع ذلك صمدت هذه الشعوب التي تحمل ميراثًا عريقًا في العروبة والإسلام وحافظت على منظومة من الفضائل الأخلاقية. ألا تستحق هذه الشعوب بالنظر لتاريخها وتضحياتها كل التقدير والاحترام بدل أن تجر عنوة إلى مجاهل الخرافة والباطنية، وتجبر بالمناورة على تمجيد من يخادعها ويتستر بحب آل البيت بينما يحملون في صدورهم الحقد على الإسلام والعرب.

لقد حاول سابقًا زعماء سياسيون ورؤساء أحزاب جر هذه الشعوب إلى مجاهل القومية العنصرية والاشتراكية والعلمانية، ولكنهم فشلوا فشلا ذريعًا ورجعوا بخيبة الأمل، ولم تستطع هذه الأيديولوجيات ملء الفراغ ولا استطاعت أن تقضي على البأس عند كثير من الشباب؛ لأن ما تسميه هذه الأحزاب (معاصرة أو تنوير أو تقدمية) هو أيضًا خرافة، فما من أمة تقطع جذورها لتصبح (معاصرة) فأمريكا التي نشأت قوية جاءت من أوربا التي تحمل ثقافة البروتستانت، وإن كل مجتمع يفقد هويته سوف يضمحل لفقدان الأهداف التي تحركه.

ماذا ربحت تلك الاتجاهات التي تسمي نفسها معاصرة أو تقدمية من محاربة الإسلام؟ أين طه حسين و(مستقبل الثقافة في مصر)؟ وأين علي عبد الرازق و(الإسلام وأصول الحكم)؟ وأين (تحرير المرأة)؟ كل ذلك ذهب مع الريح؛ لأنه فكر مقلد مهزوم، ليس له جذور، ونحن نقرأ أن المؤرخ البريطاني (توينبي) لم يكن مقتنعًا بالليبرالية، أي بالتحرر من كل معتقد، وهو يفضل أن يرى الإنسانية تسير في طريق محدد واضح المعالم وهو رأي المؤمنين بالله على أن تسير في أمورها تبعًا للمصادفات.

ونقرأ عن المؤرخ الألماني (شبنجلر) في تحليله لأفول الحضارات، حيث يرى أن شتاء الحضارة هي حين يتخذ الفن طابعًا غامضًا (السريالية) وحين تتخذ الثقافة طابع الشك، واللاأدرية، والشاعر الألماني (جوته) يقول: «كل تقدم فكري لا يقابله تقدم روحي فهو خطر، وإن عصرًا تسيطر عليه الاتجاهات اللادينية فهو عصر تدهور»، وعندنا أناس يظنون أن مهاجمتهم الدين من دلائل الرقي الفكري. ونقرأ أن رئيس سنغافورة (لي كوان لو) يرفع شعار المحاكاة الصناعية للغرب والتمايز الثقافي عنه، يقول: «وطريق آسيا إلى التقدم ليس التغريب، بل معاودتها لاكتشاف ذاتها».

إن المتغربين عندنا يدرسون المجتمعات العربية وكأنها مجتمعات غربية، ويصورون تطور المجتمع العربي وكأنه مر بالمراحل نفسها التي مرّ بها المجتمع الغربي: نظام الرق، فالإقطاع، فالرأسمالية، وهذه كلها أوهام وأباطيل. المجتمعات العربية تحتاج إلى دراسة، ولكن يجب أن تكون دراسة علمية من خلال واقع المجتمعات وخصوصيتها. هؤلاء المتغربون مستلبون عموديًا (قطيعة مع التراث الإسلامي)، ومستلبون أفقيًا (قطيعة مع الجماهير العربية)، وحتى لو قال: نحن نقصد الغرب بواقعه الحالي (الليبرالية والصناعة) فما أدراهم أن الغرب

سيتجاوز واقعه الحالي ويقطع مسافات كبيرة بعد الليبرالية، ويبقى هؤلاء متخلفون عن الركب يلهثون وراءه؛ مع ذلك هم يصرون على محاولة استلاب الشعوب العربية حين يروجون للعولمة الثقافية والاقتصادية ويصدرون حكمًا قطعيًا بأن الأرض أصبحت قريةً واحدةً ولا بد من الدخول في منظومة العولمة (السنوات الأخيرة أثبتت فشل اقتصاد السوق).

ألا تستحق الشعوب العربية التي عانت من اليتم بفقد القيادات المخلصة أن يعيد هؤلاء (المخترقون) النظر في موقفهم وأن يكفوا عن إدخال حصان طروادة الصفوي الذي يحمل السم الناقع؛ ألا يكفي هذه الشعوب ما عانته من كوارث وآلام حتى يأتي من يشوش عليها فكرها ويوقعها في الانقسامات والتفكك.

إن القلعة التي تصمد وتحمي كل القلاع الأخرى هي العقيدة الإسلامية الصافية، التي تُكوِّن أساس العمل: الاجتماع والسياسة والاقتصاد، الإيمان وحده هو الذي يحمي الناس من الضياع والاغتراب، ومن الجري وراء شعارات ومبادئ ربما ضاق بها أصحابها، ومما يدعو للتفاؤل هو أن هذه الشعوب أفضل من هؤلاء المخترقين، وهي أقرب لأن تعي أهمية القلعة، وأهمية التمسك بها.

الحرية

هي من أكثر الكلمات السياسية ترددًا في هذا العصر، وليس الحديث في هذا المقال عن الحرية السياسية التي لها إيجابيات كثيرة في الدول التي تأخذ بها والمجتمعات التي تمارسها، وإنما عن الحرية التي يظن أهلها أنها تسمح بإهانة المقدسات وإيذاء مشاعر الملايين من الناس، وتسمح بالسباب والشتائم لخير الناس وأفضلهم وهم الأنبياء، ولسيد ولد آدم محمد ﷺ، وهل هذا السفه والهذيان والحقد يقع ضمن إطار الحرية، وهل هناك حرية دون ضوابط ودون قانون ونظام ومؤسسة سياسية حتى في أرقى البلدان التي تتمسك بها وبفلسفتها.

يكتب (جون لوك) وهو سياسي وفيلسوف بريطاني من القرن السابع عشر «ينبغي على الحاكم أن لا يتساهل مع الملحدين؛ لأنه لا أمان لمن لا يؤمن بالله.. »[1].

ما هو الواجب إذن حيال الملحدين الذين يؤذون رسول الله ﷺ، والذين يستهزئون بالدين من أبناء جلدتنا قبل غيرهم من الأوربيين، هل يسمح لهم بإخراج سخائم صدورهم إلى العلن، وتسميم حياتنا وإشاعة الجرأة على المقدسات والدين؟

إن الإنسان المنحط يستطيع أن يدعي لنفسه الحرية المطلقة ويعطي لنفسه الحق في رفض كل القيود الدينية أو الأخلاقية، ولكن عندها ستكون نهاية الأمة

(١) رسالة في التسامح/ ٥٨.

وفقدها لشخصيتها من خلال التعدي باسم الحرية. ليست الحرية أن يفعل الإنسان كل ما يشاء، ويأتي كل ما يريد، بل لا بد من معايير وضوابط وإلا كانت الحرية قاتلة، فالبحر محدود بالشواطئ، وقلب الإنسان يعمل من حيث هو قلب، والمعدة من حيث هي معدة، ولكن في حدود الكيان الكبير (الجسد)، بل كل ما في الكون يسبح في فلكه ضمن العلاقات مع سائر الكائنات، بل كلما ازداد القيد صعوبة – في ظن البعض – ازدادت الحرية، فالعبودية لله هي قمة الحرية؛ لأن الإنسان في هذه الحالة لا يخضع لإنسان مثله، وقمة الحرية هي قدرة الإنسان على إلجام نفسه ليحكمها بدل أن تحكمه. الحرية الحقيقية هي التي تتغلب على الطبيعة الحيوانية، على الأهواء والشهوات، وحرية الاعتقاد لا بد لها من تحديد، ولذلك كانت عقوبة المرتد عن الإسلام شديدة حتى لا يتهاون الناس في أمر الدين ويدخلونه من قبيل التجربة «ولئلا يتوهم ضعاف العقول بأن انخذال المرتد عن الدين لأنه قد جربه فوجده غير مرضي.. »[1]، «وكذلك ما في القرآن من النهي عن الظلم، فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق والدعوة إلى صالح الأمة، وإما إطلاق عنان الجهل والظلم والأقوال الضارة المحللة للأخلاق، فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد»[2].

(١) الطاهر بن عاشور: النظام الاجتماعي في الإسلام/ ١٧٢.

(٢) عبد الرحمن بن سعدي: القواعد الحسان لتفسير القرآن/ ١٣٣.

المحتويات

تقديم ٧
السياسة والفكر ١١
نظرية المؤامرة ١٤
العروبة والإسلام ١٧
مساوئ الديمقراطية ١٩
العلم الذي لا ينفع ٢١
الأخلاق والسياسة ٢٤
القرآن والسياسة ٢٦
بين الأمس واليوم ٢٨
الحديث عن الأقليات، لماذا ظهر الآن؟ ٣٠
الإسلام السياسي ٣٣
نحن والغرب وطبيعة الخطاب ٣٥
دروس فيتنام ٣٨
أمريكا التي يجب أن تُعْرَف ٤٠
كيف يفكر الغرب ٤٣
بين الدولة والحكومة ٤٥
مرسوم (كركلا) والحوار مع ضفتي الأطلسي ٤٧
فكرة التقدم ٥٠

حزب الفساد ٥٣
على حافة الهاوية ٥٥
كيف يتعامل الغرب مع أصدقائه ٥٧
بين إسكندر الغرب وإسكندر المسلمين ٥٩
السياسة ليست انتخابًا فقط ٦٢
عدوى الفساد ٦٥
هل (الإسلامية) مضرة بالمسلمين ٦٧
الغلط الخفي ٦٩
الشرائع والتمدن ٧٢
أوهام السياسة والإعلام ٧٤
العالم بحاجة إلى رجال ٧٦
اليهود والصهيونية والمؤامرة العالمية ٧٨
عسكرة الدولة هل هو طريق للقوة أم فرصة للنجاح ٨٠
أوهام القوة ٨٢
اطلبوا العلم ولو في الصين ٨٥
السياسة في سورية في مذكرات الأمير عادل أرسلان ٨٧
عبد أمير المؤمنين ٨٩
أساطير السياسة ٩١
فقدنا العز حين فقدنا القلعة ٩٤
الحرية ٩٨

من إصدارات المركز

✓ نصر بلا حرب	أمير سعيد
✓ نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون	د. محمد العبدة
✓ خريطة الشيعة في العالم	أمير سعيد
✓ المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوية	الهيثم زعفان
✓ الطاقة الشمسية سبيل استراتيجي لنهضة الأمة	خميس البكري
✓ السودان رؤية استشرافية	طلعت رميح
✓ الصومال مفردات الأزمة وأبجديات الحل	أمير سعيد

صدر حديثا

طلعت رميح

البحر الأحمر
الخطر القادم

الناشر

مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية

مركز الرسالة
للدراسات والبحوث الإنسانية
AL-RESALA CENTER FOR HUMAN STUDIES AND RESEARCHES

٢٠١٢

صدر حديثا

الهيثم زعفان

مكانة المتديّن في أمريكا وإسرائيل

الناشر

مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية

مركز الرسالة
للدراسات والبحوث الإنسانية
AL-RESALA CENTER FOR HUMAN STUDIES AND RESEARCHES

٢٠١٢